19
قـوة التحمل

مضت ساعتان خارجاً من دونهوانغ، والتحقت قبل قليل بالطريق 312، متجهاً نحو الغرب. والطريق مسار واحد فقط في كل اتجاه، مع وجود كتف ضيق قاس، في حالة كان عليك، لا قدّر الله، أن تتعطل هنا. ويوجد خط أبيض بائس نوعاً ما يحاول أن يفصل الزفت عن الصحراء، ولكن الاثنين في الغالب يندمجان تماماً. ونحن نقترب من الحدود مع منطقة تدعى شينكيانغ، التي كانت تعرف سابقاً باسم تركستان الصينية. بضعة حافلات ركاب وشاحنات زرقاء صغيرة تئز عابرة عنا، إضافة إلى شاحنات ضخمة مفصولة في قاطرة ومقطورة تمر بين الفنية والفينة، وهي أطول بثلاثة أضعاف من أقاربها الشاحنات الزرقاء، وتجر تقريباً سيارة الأجرة المتواضعة الفولكس فاجن الحمراء التي نركبها إلى تيارات الهواء المزاح خلفها وهي تسرع متجاوزة لنا. وبعيداً أمامنا، يظهر واحد من هذه الوحوش وقد انقلب على جانبه إلى الأسفل من حافة صغيرة ويضطجع مثل حوت أخرج على الشاطئ في بحر من الرمل.

ويقول سائقي في سيارة الأجرة: «لا بد أن السائق نام». وسائقا الشاحنة يقعدان القرفصاء في ظل الشاحنة المصابة ينتظران على ما يفترض الحصول على العون.

وأسأل: «ألا يجب علينا أن نقف لننظر إن كانا يحتاجان إلى المساعدة؟»

«لا. يحتمل أن لديهما شخصاً ما قادماً من قبل لإنقاذهما».

«لا تتدخل» مازالت هي القاعدة الأولى للحياة في الصين.

الألوان في كل الجهات اليوم خافتة. والصحراء مفككة ضئيلة النمو صفراء، تمتد إلى الأبد على جانبي الطريق. وتوجد على طول جانب الطريق مجموعات من الشجيرات الخشنة، الخضراء القذرة مما أعتقد أنه يعرف باسم عشب الجمل،

على الرغم من أنني، بصراحة، لو كنت جملاً لأدرت أنفي عالياً عن هذا العشب. والسماء نفسها اليوم تبدو ممسوحة بلطخات من الغيوم الرمادية البيضاء. ولا توجد مستوطنات هنا. فالبشر يعبرون المكان بشكل صارم لا غير. وشرارة اللون الوحيدة هي فقط الدهان الأصفر في الخطوط المخطوطة في منتصف شريط الزفت الأسود، الذي يشير نحو الأفق الغربي.

فجأة، في الأمام على الطريق تظهر عدة بقع صفراء أخرى أشد تألقاً. وحين نقترب منها أكثر، يصير واضحاً أنهم راكبو دراجات، خمسة في مجموعهم، ثلاثة منهم يلبسون القمصان الصفر لفريق كرة القدم البرازيلي. هذه صحراء حقيقية، ولا أستطيع أن أصدق أن أحداً يقوم بركوب الدراجات في العراء هنا. وأطلب من السائق أن يقف بعدهم تماماً، هناك أقفز خارجاً وأؤشر لهم بالوقوف.

«هيه! هل تستطيع الوقوف؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟»

«إلى ينينغ». يقول أول دراج، وهو يدفع الدراجة إلى الوقوف أمامي. وأصدقاؤه يقفون خلفه. ينينغ هي البلدة الواقعة تماماً إلى جانب الحدود الكازاخية، وهي المكان الذي أتجه إليه أيضاً.

«من أين أنتم قادمون؟»

«من لانجو».

«لماذا تركبون دراجات؟»

«لقد أردنا فقط أن نخرج ونستكشف بلدنا قليلاً. إنها مغامرة».

الخمسة كلهم طلاب صينيون ودودون، مبتسمون نموذجيون، راغبون في الإجابة عن أسئلتي، على الرغم من أنها ستكون في حرارة تزيد عن مائة درجة في الظل لو كان يوجد الظل. وهم جميعاً أعضاء في أقليات عرقية إسلامية من الشمال الغربي وهم يدرسون في المدرسة العربية في لانجو.

وتحادثنا لبضع دقائق أخرى، ثم رجعت إلى السيارة، وأنا أشعر بأنني محرج قليلاً لأنني في سيارة وهم يرجعون لتسلق دراجاتهم خلفي تحت شمس غوبي التي لا رحمة فيها.

وكنت قد انطلقت مبكراً من دونهوانغ في ذلك الصباح، وسارت السيارة ساعتين إلى الشمال، ثم انعطفت يساراً، باتجاه الغرب، ورجعت للسير على الطريق 312. وكانت هناك بوابة ضخمة لدفع رسوم المرور ميزت المدخل إلى القسم التالي من الصحراء. وعلى مسافة ميل أو ما يقارب ذلك بعد رسم المرور، وقبل أن قابلنا راكبي الدراجات، كانت شاحنة ضخمة مفصولة في قاطرة ومقطورة قد وصلت على الطريق قادمة من الصحراء المفتوحة. بل هي لم تكن قادمة من طريق جانبي تسوق فيه، فليس هناك طرق جانبية، ولكنها كانت حرفياً تدخل إلى الشارع تسوق قادمة من غوبي.

قال سائقي: «إنه يتجنب دفع الرسوم. لقد ساق خارج الطريق تماماً إلى الصحراء قبل بضعة أميال من بوابة رسوم المرور، وتحرك في حلقة حول موقع البوابة، وعاد إلى الالتحاق بالطريق بعد بضعة أميال بعد موقع البوابة».

والصحراء هنا لا هي من نوع صحراء الحبيبات الناعمة للرمال المغنِّية ولا هي من نوع السطح القاسي ذي اللون المائل للصفرة البنية والشجيرات البرية مثل الأقسام السابقة من غوبي. إن عليها طبقة من السواد عبر السطح. ويقول السائق إنها معروفة باسم يعني «الرمل الأسود». ويقول لي: «إنه فلز الحديد. إنه ليس من نوعية جيدة بما يكفي للقيام بتعدينه، ولكن توجد بعض المناجم هنا».

ويشير إلى جهة الشمال، إلى الفراغ الهائل خلفه. «قصدير، وألومينيوم، ونحاس، وفلز حديد، وذهب». رواسب هائلة من الموارد المعدنية تثوي تحت رمال الصحراء. النفط والغاز يُضخان من قبل إلى الشرق لتزويد ازدهار الصين الاقتصادي بالوقود، وإمكانية اكتشاف المزيد هنا يمكن أن يثبت أنه مهم جداً مع ازدياد شدة طلب الصين للطاقة.

شينكيانغ، (وتعني «الحدود الجديدة») في حجم كاليفورنيا، وتكساس، ومونتانا، وكولورادو مجتمعة (أو،إن كنت تفضل فهي في حجم بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإسبانيا). لو كانت بلداً واحداً، لكانت في المركز السادس عشر من بين أوسع البلدان في العالم، ولكنها تضم عدداً من السكان يبلغ 20 مليون نسمة فقط. وحين التحدث بدقة، لا نستطيع أن ندعو شينكيانغ مقاطعة. إن عنوانها الرسمي هو منطقة الحكم الذاتي لشينكيانغ الويغور. والويغور هم المجموعة العرقية المسيطرة هنا، وهي المجموعة التي تسبب لبكين أكثر المشكلات.

دعاية الحكومة لم تتغير، ولكن اللغة تغيرت. فلمسافة ألفي ميل، كانت الحروف الصينية هي السائدة في لافتات الطريق. أما الآن فعليها أن تزاحم للحصول على الحيز مع أسماء المكان المكتوبة بلغة الويغور، التي تستخدم الحرف العربي.

ادفعوا قدماً بالتقدم الاقتصادي لهامي
احموا كابلات الصين الموجودة تحت الأرض
أحبوا أطفالكم البنات

ويهتز هاتفي الخليوي الجوال، مثلما تهتز كل الهواتف الجوالة الصينية حين تدخل مقاطعة جديدة أو منطقة جديدة. وتقول رسالة: «أهلاً إلى شينكيانغ». ثم تأتي رسالة أخرى: «أتتطلع إلى هبة ؟ حجر اليشم من بلدة خوثان متقن لأي مناسبة. هاتِفْ هذا الرقم الآن».

بعد قليل نصل إلى بلدة صغيرة هي شينغ شينغ شيا، أو الممر الخانق النجمي، وهي الجزء الصغير من المسكن الإنساني الذي حدد دائماً دخول المسافر إلى شينكيانغ. إنه موقع واحد من آبار الماء العذب المعروفة جيداً في طريق الحرير القديم. وبعد المرور عبر الممر الضيق الخانق الذي يعطي البلدة اسمها، أقف لتناول الغداء في مطعم صغير على جانب الطريق. ولا تكاد البلدة تتأهل لوصف واحة إنها تبدو قاحلة جداً.

مالك المقهى الصغير اسمه لاو جانغ. ويبدو أكبر سناً من أعوامه الخمسة والأربعين ومازال يدير موقف الشاحنات الصغير هنا في الممر النجمي طوال عشر سنوات. وهو

صيني من الهان، وجاء في الأصل من مدينة توربان، أبعد إلى جهة الغرب على الطريق 312. لاو جانغ نوع مرح من الناس. ولا يستغرق الكثير من الوقت لجعل فمه المزموم ينفرج عن ابتسامة كبيرة، ثم عن ضحكة تنفجر من داخله.

وحين أدخل مقهاه الصغير، أجد أنه في المطبخ، يقلي بطريقة صينية سريعة بعض الطعام لاثنين من سائقي الشاحنات، يجلسان بانتظار تناول طعام الغداء. ويأتي هو ويبتسم، وأقرر أن أذهب معه وأتحادث معه في أثناء قيامه بالطبخ. وعلى الرغم من نافذة مفتوحة على مصراعيها، فالمطبخ فرن، ولهب الغاز يقفز إلى الأعلى إلى جانب المقلاة السوداء الوسخة وهو يطبخ.

وأقف إلى جانب النافذة المفتوحة وأسأله ببساطة كيف هي الحياة؟ ويفتح سؤالي بوابة فيضان.

«كيف هي الحياة؟ كيف هي الحياة ؟ الحياة ليست جيدة. هل تعرف لماذا ؟ لأن المسؤولين قد أغلقوا بئرنا بالختم. البئر التي أعطت الماء إلى شينغ شينغ شيا طوال قرون ختمت بالإسمنت المسلح».

وينظر إلى الأعلى عن مقلاته المسودة، ثم يرش صلصلة الصويا على المقليات في المقلى، التي تئز حين يرمي فيها الصلصلة. «المسؤولون هنا شريرون للغاية، غير أخلاقيين على نحو لا يصدق للغاية، إنها تتحدى التصديق تقريباً».

وأسأله: «ولكن لماذا من كل الأشياء الممكنة، يريدون أن يفعلوا ذلك ؟»

«لأنهم..». ويتوقف مرة أخرى ويخطو إلى الخلف بعيداً عن فرن الغاز، والمقلاة في يده، لينظر إلي. «لأنهم يديرون شركة الماء المحلية، ويريدون أن يجبروا كل واحد منا على شراء مائهم».

في كل الحالات، حتى حين تعتقد أنك تعرف شيئاً عن ارتشاء المسؤولين الصينيين، مازالت هذه القصص تستطيع أن تذهلك وتحبس أنفاسك. ويقول لاو جانغ إنه جادلهم محتجاً، ولكنهم لا يستمعون إليه. ويقول إنهم استخدموا الحجة التقليدية بعد 11/9 لمسؤولي الحكومة في شينكيانغ، وهي منطقة فيها عدد عال من السكان المسلمين.

«قالوا إنني إذا تابعت الاحتجاج، فإنهم سوف يقبضون علي بصفة إرهابي». وحين يقبض عليك بصفة إرهابي في الصين، فلن يكون لك أي مرجع لطلب العون، ولن يكون لك محام، ولا حماية. وهكذا كان على لاو جانغ أن يخرس. ولكنه يرفض أن يشتري ماءهم.

الطعام جاهز. ويديره كالدوامة ويصبه في الصحن ويختفي خلف الستارة الوسخة ليقدمه إلى سائقي الشاحنات. ويعود، ويمسح يده بمنشفة هي أشد وسخاً أيضاً، ويقف وينظر إلي، وكأنه يكوّن رأياً عني فعلاً لأول مرة.

ويصنع ليي طاسة من حساء المعكرونة الطويلة، ثم يخرج ويجلس معي في منطقة الغداء الصغيرة الرثة.

لاو جانغ يمتلك ناراً في عينيه نادراً ما تراها في الصين. ولا يبدو مثل مالك عادي لمقهى. في عصر مختلف، أتخيل أنه كان يستطيع أن يكون ثورياً. وأما هنا، فهو وسط الصحراء، يحاول أن يكسب معيشته لنفسه وزوجته وطفلته. ويقول «ابنتي تريد أن تكون شرطية حين تكبر، كي تستطيع أن تضبط المسؤولين الفاسدين».

ينهي سائقا الشاحنات غداءهما ويغادران. وأتحادث أنا مع لاو جانغ طوال نصف ساعة. والمقهى الصغير حار حرارة شديدة مجفِّفة. ولاو جانغ أشد حرارة منها. لديه المزيد من القصص عن فساد المسؤولين، والمزيد من الغضب على المسؤولين المحليين، والمزيد من الحكايات عن سوء استخدام السلطة، وهي حكايات ستسمعها في كل موقف من مواقف الشاحنات، وفي كل قرية، وفي كل بلدة عبر الصين. وهو يلوح بيديه ويرغي ويزبد بأقواله الساخطة، ويبدو سعيداً بأنه أخرجها كلها من صدره.

وأسأله أخيراً: «إذاً ليس هناك أي شيء تستطيع أن تفعله حيال ذلك؟»

يحدق بي بشدة، وحبات العرق تتدحرج ببطء عن صدغيه. ثم يرفع إصبعين. «هناك شيء واحد أستطيع أن أفعله، وأستطيع أن أخبرك ما هو في حرفين».

من النار المتقدة في عينيه، ومن فورة الغضب الذي لا يكاد يُكبح في صوته، أعتقد بأمانة أنه كان سيقول «الثورة».

ولكنه لم يقل.

ويقول، وهو يبصق الكلمات من بين أسنانه بصقاً. «التَّحمل. ذلك هو كل ما نستطيع أن نفعله. نحن نستطيع أن نتحمل ويجب أن نتحمل. ذلك هو كل ما كنا نستطيع أن نفعله في أي وقت مضى».

أحدق فيه وببطء أهز رأسي. لقد لخص قبل قليل آلاف السنوات من التاريخ الصيني. التحمل هو كل ما كانت الأسماء المائة القديمة تستطيع أن تفعله في أي وقت مضى. وعلى الرغم من كل التقدم الموجود في أكثر الأقسام ثراء في الصين، فإن التحمل هو كل ما ترى نفسها مئات الملايين من عامة الناس في أكثر الأرياف فقراً وفي المناطق الغربية كل ما ترى نفسها فاعلة في المستقبل في أي وقت.

في لحظات معينة من الأزمة في التاريخ، صار التحمل كثيراً جداً، والضغط تراكم وازداد، والبركان انفجر. لقد بدأت الثورات وأطاحت بالأسرة الحاكمة. ولكنها لم تؤد إلى تغيير في النظام. لقد قامت ببساطة بإحلال إمبراطور بدل آخر، وبأسرة جديدة تنتهي في كونها فاسدة مثل سابقتها. لم يكن هناك قط أي فصل للسلطات، ولا أي رواية خطية مستقيمة للتغيير، ولا أي ماغنا كارتا. تركزت السلطة في أيدي قلة من المسؤولين فقط، وقعوا في شرك دائرة لا تنتهي من التاريخ.

بعد شهور، وجدت نصاً في كتاب ميلدريد كيبل وفرانسيسكا فرنش (عبر بوابة اليَشَم وآسيا الوسطى). وهو نص مكتوب، والمبشرات الثلاث قد أُخِّرن في بلدة الممر النجمي في العشرينيات من 1920 وهن في طريقهن إلى أرومجي. فالجنود المعسكرون هناك يمنعون كل واحد من العبور من خلال بلدة الممر النجمي، ويجري احتجاز عدة شبان في النزل نفسه مثل المبشرات الثلاث. هؤلاء الشبان قد أجبروا على الدخول في العسكرية، وقد جلد بضعة أشخاص منهم بسبب تركهم الخدمة على ما يبدو. وتكتب كيبل وفرنش «هيمنت على المكان روح من اليأس الفارغ». ثم إنهما تعودان إلى الخلف وتنظران إلى الصورة الكبيرة للصين، مستندتين إلى خبرة ثلاثين عاماً.

الصينيون شعب عانى المعاناة الطويلة، إنهم يحتملون مظالم الاستبداد من الغاشمين الظالمين لهم، والهيمنة الجشعة من المسؤولين، مع استسلام للمعاناة يبعث على الأسى، ولكن الساعة قريبة حين سيثورون ويثأرون لمظالم الأجيال. في مثل هذه الساعة، ليس هناك عنف يُعد مفرطاً، وسوف يتعاملون مع الغاشمين الظالمين لهم بطريقتهم الخاصة بهم.

ذلك ما كان في العام 1926. ونبوءتهما تحققت في السنوات الأولى من حكم الحزب الشيوعي، في الخمسينيات من 1950، حين عوقب ملاك الأرض و«الطبقات الحاكمة» بالموت بلا رحمة على أيدي القادة الجدد للفلاحين. هو هناك ثورة جديدة قادمة؟ الناس من أمثال لاو جانغ ينجحون، تقريباً. كل واحد من الناس يستطيع أن يحتمل الفساد من دون شكوى إذا كان نصيبه الخاص يتحسن في كل عام، مهما يكن تحسناً ضئيلاً. ولكن إذا توقف الاقتصاد، فهناك كثيرون من الناس الغِضاب جداً الآن، عبر الصين كلها، جاهزون للانتقام من ظلم المسؤولين الجشعين. كلمات ماو من العام 1927 تعود إلي باستمرار: «شرارة واحدة تستطيع أن تشعل النار في المروج». والعشب في هذا الجزء وفي العديد من أجزاء المروج جاف جداً، جداً.

النار في عيني لاو جانغ توقدت حتى هذه اللحظة. والآن بعد أن انفجر، فهو يهز رأسه، وعيناه تبدوان لامعتين كالزجاج قليلاً، وأنا أعجب كم من الوقت أطول مما سبق ستبقى النار موجودة هناك.

وأدفع له عن طاستي من حساء المعكرونة الطويلة وأطلب منه إن كان يستطيع أن يريني البئر. ويقودني إلى الخارج إلى مجرى صغير تحت الطريق أسفل منحدر تحت الطريق 312 وهو يدرج داخلاً إلى البلدة. للبئر غطاء ضخم من الإسمنت المسلح محكم السد فوق أعلى البئر. وأنظر إليه وأهز رأسي وأنا لا أكاد أصدق. أما هو فينطق بسخرية من خلال أسنانه وينصرف مبتعداً. ثم أقول وداعاً وأتجول في المكان حتى الطريق، لأبحث عن ركوب أسير فيه قدماً إلى البلدة التالية، إلى هامي.

وتلك هي الكيفية التي وصلت فيها إلى الوقوف في بلدة الممر النجمي (ستاري غورج) أتحادث مع سائقي الشاحنات في محطة البنزين. وتبادلنا أطراف الحديث في أثناء انتظارنا لسيارة الشرطة لتتحرك بعيداً عن موقعها أمامنا على الطريق. ويخبرني السائقون عن لعبة القط والفأر التي يلعبونها مع الشرطة طوال السير على الطريق 312. فعديدون منهم جاؤوا من شنغهاي، وبعضهم من غوانغجو، في جنوب الصين نفسه، وواحد من بكين.

توجد لافتة رسمية على جانب محطة البنزين تقول: تشدّد في العشوائيات الثلاث.

وأسأل: «ما هي العشوائيات الثلاث؟»

ويجيب واحد منهم، وهو يقول إنها حملة ضد الشرطة الفاسدة والمسؤولين المحليين، الذي يفرضون العشوائيات الثلاث وهي: «لا رسوم عشوائية، لا حواجز طرق عشوائية، لا غرامات عشوائية».

وأجيبه، «ذلك مدعاة للتهكم نوعاً ما. إن سيارة الشرطة ستكون واقفة تنتظر لتغرمكم عشوائياً على بعد بضع مئات من الياردات عن لافتة رسمية حكومية تقول يجب عليه ألا يفعل».

ويبتسم سائق الشاحنة الابتسامة الكئيبة التي يبتسمها كل شخص صيني. الابتسامة التي تقول ببساطة: «أنت أجنبي، وهذه هي الصين».

ثم سرت كلمة بين السائقين بأن سيارة الشرطة تحركت، فتبعثر السائقون إلى شاحناتهم، ويعرض علي ليو شيانغ الركوب معه في شاحنته الكبيرة الزرقاء من نوع ريح الشرق كانت تحمل مرشحاً صناعياً ضخماً على ظهرها.

ويقول ليو، وهو يلتقط المحادثة عن الفساد المحلي: «نحن نحتاج إلى نظام متعدد الأحزاب. نحن نحتاج إلى الزواجر والضوابط على الحكومة. إنها بكل بساطة فاسدة جداً».

كلماته عن البغضاء للمسؤولين المحليين ترجع أصداء كلمات لاو جانغ في المقهى. ويقص علي ليو المزيد من قصص فساد الشرطة على طول الطريق في كل مقاطعة عبر الصين، وهي جملة تتكرر كأنها ابتهال صلاة عن سوء استخدام السلطة رسمياً، وهو أمر، للإنصاف، موجود ومستمر في معظم البلدان النامية. ولكن، في المقابل على خلاف الكثير من العالم النامي، فإن ليو مع كثير من الصينيين يحتفظون باعتقاد كونفوشيوسي قديم للغاية بأن قادة الحكومة المركزية طيبون، وأن المسؤولين المحليين فقط هم الفاسدون. واحترام الحكومة المركزية وعدم الثقة بالمسؤولين المحليين يبدو أنه النقيض التام للموقف العقلي الثابت الأمريكي.

والسائق ليو ليس صريحاً فقط بشأن السياسة بل هو منفتح حول حياته الخاصة. وأسأله إن كان يزور الساقطات المتوافرات في كل موقف شاحنات، ويقول إنه يفعل.

ويقول وهو يجعل المسألة تبدو وكأنه يتحدث عن شخص آخر غيره: «طبعاً، هذه ظاهرة ليست جيدة جداً. ولكنني رجل، وهكذا فهي في طبيعتي، أليس صحيحاً ؟»

حين تصل الصحراء وأنت تسوق السيارة غرباً في الولايات المتحدة، فأنت تعرف على الأقل أن هناك البحر اللامع من المحيط الهادئ على الجانب الآخر. أما هنا في شينكيانغ، فالصحراء لا تبدو قط أنها تنتهي، لا، ولا يبدو الطريق 312 أنه ينتهي كذلك. فنحن نسافر لساعات من خلال وسط الفراغ، نتحدث عن كل شيء وعن لاشيء، ونصير صديقين ثابتين، وعلى الرغم من أننا لن نلتقي قط مرة أخرى. ونقف وقفة قصيرة عند قرية صغيرة، مغبرة اسمها ليوتيو شانزي، وهي تعني «حظيرة الجمال». وأنت هنا تستطيع أن تعرف أنك في الغرب النائي القفر من أسماء البلدات والقرى. فحظيرة الجمال مثل الممر النجمي فيهما صف من المقاهي الصغيرة الوسخة، ولكن يوجد في هذه البلدة المزيد من الخيارات من الطعام. فكل موقف شاحنات يتخصص بطعام من مقاطعة بعينها. واللافتات في الخارج تعلن طعام هينان، طعام شانسي، طعام آنهوي، وهكذا. وكل سائق يريد الطعام من مقاطعته، حسب ما يشرح ليو، وهنا يستطيعون أن يلتقطوا الأخبار من وطنهم ويجددوا معلوماتهم في أثناء تناولهم لطبقهم المفضل.

بعد ساعة أخرى من الصحراء المفتوحة، نقترب من مخرج من الطريق 312 إلى هامي، وأستعد أنا للنزول. طوال سنوات من العيش في الصين، تحدثت مع عشرات من الصينيين من الأساتذة الجامعيين ومن الخبراء والمفكرين ومن الحضر الذين يعطون الانطباع بأنهم يضعون أصابعهم على نبض الأمة ويمتلكون القدرة على شرحه للأجانب. أحياناً يفعلونها جيداً جداً، ولكنك إذا أردت فعلاً أن تعرف عن الصين، عن الصين الحقيقية، فهناك طرق قليلة لتكتشف ذلك أفضل من محادثة طويلة مع سائق عادي لشاحنة للمسافات الطويلة، وهو يسرع عبر صحراء غوبي.

20
الجدار الكبير للعقل

هناك قلة قليلة من نظم الكتابة في العالم أكثر فنية على نحو رائع أو أكثر جمالاً على نحو ساحر من حروف اللغة الصينية. فالصينية لا تمتلك أبجدية ولكنها مصنوعة من 214 «جذراً» مختلفاً وهي تختلط معاً لتصنع الحروف. والجذور ليست هي الحروف التي اعتدنا كلنا على رؤيتها في لافتات المطاعم الصينية، إنها الأجزاء المكونة لتلك الحروف. فهناك جذر لكلمة «ماء» وهو مكون من ثلاثة خطوط صغيرة فقط، وهناك جذر لكلمة «رجل»، وهي تبدو مثل رجل له ساقان، وهناك جذر لكلمة «حيوان، » وهكذا. وكل حرف مصنوع من خليط من الجذور، مع كون بعض الجذور مستخدمة للإشارة إلى معنى الحرف، وبعض الجذور مستخدمة لإعطاء إشارات إلى اللفظ الصوتي للحرف. وهكذا فإن أي حرف له علاقة بالماء (نهر، بحر، قناة) يحتوي على جذر «الماء» زائداً جذراً آخر أو اثنين. ومعظم الحروف التي لها علاقة ما مع الخشب (شجرة، غابة، طاولة، كرسي) تحتوي على جذر «الخشب» زائداً جذوراً أخرى. وهكذا دواليك.

وبعض الحروف الصينية مصنوعة من خلطات مثيرة للاهتمام من الجذور. فجذر «خنزير» تحت جذر «سقف» هو حرف من أجل «بيت». وجذر «امرأة» مجموعاً مع جذر «ابن» هما الحرف لكلمة «جيد».

بعد أن تكون الحروف قد شُكِّلت، فإنك آنئذٍ قادر على وضع الحروف المختلفة معاً لتصنع المزيد من الكلمات المركبة. وعلى العموم، لا يستطيعون ابتداع حروف جديدة (على الرغم من أن لغوياً صينياً مشهوراً اسمه جاو يوانرين ترجم مرة قصيدة لويس كارول الهراء المعنونة «الهذرمة» إلى الصينية، مستخدماً حروفاً مخترعة ليمسك بمعنى حيوانات «الغُريرات الناعمات النشيطات كن يخدشن ويحفرن حفراً في جانب التل» في قصيدة لويس كارول الأصلية). وهكذا، إذا ظهر مفهوم جديد، فإنه يوصف

بوضع الحروف الموجودة معاً. النظام منطقي جداً. وعلى سبيل المثال، حين صادف الصينيون الزرافة لأول مرة، فإنهم لم يرجعوا إلى جذور بعض اللغات الأم القديمة مثل اللاتينية أو الإغريقية لابتداع كلمة جديدة، وإنما استخدموا الحروف الموجودة عندهم سابقاً. فالكلمة الصينية للزرافة تعني حرفياً «الأيل الطويل العنق». والكلمة الخاصة بالحاسوب تعني «العقل الإلكتروني». بل إن الكلمات غير الجديدة هي في الغالب مزيج رائع من الحروف الموجودة. فالكركند يعني «القريدس التنين». وكلمتي المفضلة المعينة الخاصة بي هي الكلمة الدالة على «الرحم» وهي تترجم حرفياً بكلمتي «قصر الطفل».

كل هذا جعل إدخال الآلة الكاتبة إلى الصين صعباً نوعاً ما، وإدخال الكلمات المتشابكة كان أصعب أيضاً. ولتكتب بالحاسوب في اللغة الصينية، يجب عليك أن تكتب الحروف الصينية في أبجدية غربية (مثل qiu, xia, zhao, meng، أو أي شيء آخر، وكلها تمتلك حروفاً متعددة تصوت بالصوت نفسه)، ثم تضرب مفتاح Return (العودة)، ويظهر خيار من الحروف اللاتينية الرومانية بتلك الطريقة. ثم تقوم بعدئذٍ باختيار الحرف الذي تريده. لقد صار تعلم ألفبائيتهم جزءاً حاسماً من تعلم الأطفال الصينيين لحروفهم وللفظها.

اللغة الصينية، هي من وجوه عديدة مثل الحضارة الصينية نفسها، كانت دائماً مكتفية بذاتها ومن الصعب الدخول إليها. وذلك مازال صحيحاً بالنسبة إلى الشخص الخارجي. وبالإضافة إلى الجذور ثم الحروف، هناك تواليات النغمات الأربع للغة (النغم الأول المستوي، والنغم الثاني الصاعد، والنغم الثالث الهابط ثم الصاعد، والنغم الرابع الهابط). والحروف التي تهجأ بالطريقة نفسها تماماً في ألفبائيتنا لها معان مختلفة اختلافاً كاملاً اعتماداً على نغمتها، وأشهرها هي mai (ميي)، التي يكون معناها «أن يشتري» حين تستخدم مع النغم الثالث، وأما حين تستخدم مع النغم الرابع فيكون معناها «أن يبيع». (وهذا يفسر لماذا تكون سوق الأسهم والسندات الصينية في مثل هذا الاضطراب الشديد.) والكيفية التي تَكتُب بها الحروف مهمة أيضاً. والرجل ذو الحظ السيئ ينظر إليه من الصينيين المتعلمين في الطريقة نفسها التي قد ينظر بها المتعلمون الغربيون إلى رجل يلبس بدلة رخيصة.

على كل حال، الدخول إلى اللغة (التعلم كيف تقرأ، وتكتب، وتلفظ الحروف) هو إلى حدٍ بعيد أصعب جزء من تعلم الصينية. بعد أن تكون في الداخل، فإنها تكون أبسط بكثير من اللغة الإنجليزية ومعظم اللغات الغربية. والقواعد بسيطة للغاية. فليس هناك أزمنة، ولا تصريفات، ولا جموع، لأن الحروف الصينية لا تستطيع أن تتغير. إنها ببساطة موجودة.

ولبساطة اللغة جانب منفلت، مع ذلك. وحقيقة أن الحروف لا تستطيع أن تتغير يعطي اللغة كلها عدم مرونة تجعل العلماء الصينيين أنفسهم يقِرّون بأنها تستطيع أن تقزم الأصالة. ومازال يجب على أطفال المدارس أن يتعلموا الحروف عن ظهر قلب، ويقول النقاد إن الطريقة التي يتعلمون بها مصممة مسبقاً لتؤثر على الطريقة التي يفكرون بها.

ولست متأكداً من أنها قابلة للقياس الكمي (أو إذا كان يسمح للمرء أن يتأمل في ذلك من دون أن يكون متهماً بالاستشراق الفاضح)، ولكنني أتعجب من قرب تلك الصلة الكائنة بين القلعة غير القابلة للاقتحام من الحرف الصيني المكتوب وبين القلعة غير القابلة للاقتحام من الدولة الإمبريالية (ثم دولة الحزب الشيوعي). الكلمات في اللغات الأبجدية سيالة ومطواعة للتشكيل. إنها قادرة على أن تتغير وتتطور، ولا تبدو لي صدفة كاملة أن الأنظمة السياسية لبلاد كلمات هذه الأبجديات أيضاً تستطيع ذلك التغير والتطور.

الناقد الصيني العظيم المهاجم للمعتقدات والمؤسسات التقليدية في مطلع القرن العشرين، لون شون، الذي كنت قد زرت قبره في شنغهاي، فكر تفكيراً عميقاً حول هذا الموضوع. وقال إن الصين لا تستطيع قط أن تصير بلداً عظيماً إذا لم تتخلص من طريقتها في الكتابة على نحو كامل: «إذا كنا سنستمر في العيش، فإن الحروف الصينية لا تستطيع... الحروف تراث ثمين تسلمناه من أسلافنا، أنا أعرف ذلك. ولكننا نستطيع أن نضحي بتراثنا أو بأنفسنا: أيهما يجب أن يكون ؟»

والسبب الذي يجعلني أثير كل هذا هنا ليس هو الجدل فيما إذا كان نظام الحروف الصينية يجب أن يترك، فذلك لا يبدو ممكناً في الوقت الحاضر، ولكن السبب هو

أن أناقش انحرافاً لغوياً بعينه يقول الكثير عن الجزء من الصين الذي أسافر عبره الآن. ويقول الكثير أيضاً عن العلاقات التاريخية بين الحكام الصينيين في بكين وبين المسلمين فيما يسمى الآن شينكيانغ.

حتى القرن الثامن عشر، كان الحرف الصيني hui (ويلفظ hway) هواي يستخدم في المراسيم الإمبراطورية لوصف مسلمي الشمال الغربي من الصين. وكان أحد مكونات جذور الحرف هو جذر «الكلب». الصين، ينبوع كل الحضارة، امتدت إلى أقصى قلعة من الجدار العظيم في جيايوغوان. فيما وراء ذلك كان البرابرة، الذين لم يكونوا أفضل من الكلاب، والحرف المستخدم لوصفهم عكَس ذلك الوصف. (وهذا الموقف نحو غير الصينيين كان صحيحاً بالنسبة لا إلى مسلمي الشمال الغربي وحسب بل بالنسبة إلى شعب المحيط كذلك. وفي القرن التاسع عشر، كتب واحد من أوائل المترجمين البريطانيين، وهو توماس تايلور ميدوز، كتب يقول إن الصينيين «كانوا دائماً مندهشين، إن لم نقل مذهولين، حين يعلمون أن لنا أسماء عائلات، وأننا نفهم التمييزات للأب، وللأخ، وللزوجة، وللأخت، الخ، وباختصار بأننا نعيش على غير ما يعيشه قطيع من الأنعام»).

بعدئذٍ، في العام 1760، حدث شيء مثير للإعجاب. فإن الإمبراطور شيانلونغ (وهو الذي سوف يهين، بعد أكثر من ثلاثين عاماً، المبعوث البريطاني لورد ماكارتني ويعيده إلى بلاده) كان قد استولى قبل قليل على تركستان الصينية، وهي القطعة الضخمة من الأرض التي أسافر عبرها، التي تبدأ في بلدة الممر النجمي، هي الآن تسمى شينكيانغ. «فم» الصين في قلعة جيايوغوان لم يبق بعد ذلك هو الفم. لقد توسعت الإمبراطورية الصينية، مستبعدة ضرورة الجدار الكبير - وفي الحقيقة، من ذلك التاريخ وما تلاه، تدهور الجدار الكبير إلى حالة تحتاج إلى الترميم لأن الإمبراطورية الآن امتدت إلى ما وراءه. وهكذا فإن الإمبراطور شيانلونغ، ولأول مرة في ألف عام، من ناحية الأراضي إن لم يكن من الناحية الثقافية، زعم أنه قد جلب مسلمي التركستان إلى الإمبراطور الصيني.

وكأنما لوضع علامة على هذا التغيير، أصدر البلاط الإمبراطوري مرسوماً في شباط/فبراير 1760، وقال المرسوم يجب على الوثائق الرسمية ألا تَستخدِم بعد الآن جــذر «الكلب» في الحرف الصيني المستخدم لوصف مسلمي تركستان. وكان يجب التخلص من ذلك تماماً، وابتداءً من ذلك الربيع، يلاحظ علماء المحفوظات الإمبراطورية أن أياً من الوثائق الإمبراطورية لا تستخدم جذر «الكلب» حين تكتب حرف هواي للإشارة إلى مسلمي المنطقة.

لم يحدث من قبل ذلك قط أن كانت بضع ضربات من فرشاة على صفحة تستطيع أن ترمز لمثل هذا التحول النفسي الذي كان مأمولاً. وأشار التغيير إلى أن الإمبراطور في بكين لم يبق بعد ذلك ينظر إلى هؤلاء البرابرة بوصفهم برابرة، وأنهم قد جرى جلبهم إلى داخل الأسرة الإمبراطورية، ويجري جعلهم جزءاً من الإمبراطورية الصينية، وأنهم نتيجة لذلك قد رفعوا فوق منزلة الحيوانات. وباختصار، لم يبقوا بعد ذلك «هم». ويستطيعون الآن أن يُعدوا جزءاً منا «نحن».

كان هناك مشكلة صغيرة واحدة لا غير. وهي أن «هم» كانوا سعداء بكونهم «هم» وأن «هم» لا يريدون أن يصيروا جزءاً من «نحن». والشيء نفسه صحيح اليوم.

لقد غامر الصينيون في الدخول إلى تركستان ثلاث مرات في تاريخهم.

المرة الأولى كانت في القرن الثاني قبل الميلاد، في أثناء أسرة هان، ودامت على نحو متقطع لأكثر من ثلاث مئة سنة. وكانت تلك الفترة متميزة بصراع من أجل التفوق بين الصينيين الهان وبين «برابرة» قبائل شيونغنو إلى الشمال الغربي. وحين انهارت أسرة هان، مع ذلك، في العام 220 بعد الميلاد، انهارت الصين كذلك، وانهار معها النفوذ الصيني في آسيا الوسطى.

والغزوة الثانية إلى الغرب جاءت في القرن السابع، حين كانت الصين أخيراً قد توحدت ثانية، تحت حكم أسرة تانغ. ولكن مع حلول ذلك الوقت، كانت قد ظهرت قوة جديدة في آسيا الوسطى. كان العرب يدفعون شرقاً ويجلبون معهم الدين الجديد،

دين الإسلام. لقد هزموا الصينيين في معركة تالاس* (في قيرغيزستان في العصر الحديث) في العام 751 بعد الميلاد، ومرة أخرى تراجع الصينيون. (وملاحظة مثيرة للاهتمام عن هذه الهزيمة: لقد كانت تالاس هي المكان الذي أعطى فيه الجنود الصينيون الأسرى لأول مرة سر صنع الورق إلى العرب. ومن الشرق الأوسط وجد الورق طريقه إلى أوروبة في القرن الثامن عشر).

ولم يحدث حتى جاء استيلاء الإمبراطور شيانلونغ، بعد ألف عام، أن تدخل الصينيون بنجاح ثانية في تركستان، ولم يغادروها منذ ذلك الوقت. ومع ذلك فإذا ذهبت إلى موقع الإنترنت للحكومة الصينية أو إلى كتب التاريخ، فإنهم يقولون إن شينكيانغ كانت جزءاً من الصين منذ العام 60 قبل الميلاد.

وكان توسع الإمبراطور شيانلونغ إلى داخل الشمال الغربي لأسباب إستراتيجية إلى حد كبير، وذلك ليخلق منطقة عازلة ضد أي واحد يريد أن يغزو، ومازال ذلك جزءاً من التفكير الصيني اليوم. والسيطرة الأولى على كل من شينكيانغ التيبت كانت سيطرة عسكرية، والحكم التالي للمنطقتين لم يكن يهدف إلى الاستعمار. فالمسلمون المحليون (التيبيتيون في التيبت) سمح لهم في أن يستمروا في حياتهم اليومية، وبشكل حاسم، مع دينهم. ولم يكن حكام أسرة شينغ في تلك المرحلة يحاولون أن يحولوا «هم» إلى «نحن» وإنما كانوا يتخذون الخط اللين وذلك ببساطة جلب «هم» إلى عائلتنا «نحن» الكبيرة، الصينية الإمبريالية المتعددة الأعراق.

وحقيقةُ أنهم توسعوا أيضاً إلى شينكيانغ، هي إلى حد كبير، بسبب أن حكام شينغ لم يكونوا من الهان الصينيين، بل كانوا مانشوس. وهؤلاء كانوا قد غزوا الصين من منشوريا (الصين الشمالية الشرقية الآن) في العام 1644 ولكي يحكموا مثل هذه

* معركة كبيرة عند نهر تالاس بالقرب من طشقند، كان المسلمون فيها بقيادة زياد بن صالح في ثلاثين ألف مجاهد، وكان الصينيون في مائة ألف مقاتل. دامت المعركة خمسة أيام وانتهت بتدمير الجيش الصيني، وصدت هذه المعركة التقدم الصيني نحو آسيا الوسطى ألف عام. ويقول أحد المؤرخين الكبار: «إن هذه المعركة... قررت مسالة أي الحضارتين الصين أم الإسلام سوف تهيمن في البلاد (تركستان)». وبعد هذه المعركة انتهت البوذية، والهندوسية، والزردشتية، وعبادات محلية أخرى. (المترجم)

الإمبراطورية الضخمة، كانوا قد تبنوا العديد من الطرائق الصينية. ولكنهم أبقوا على بعض طرائق المانشو كذلك. وكانوا في أصلهم صيادين وفرساناً، ولهم نظرة شاملة لآسيا أكثر شبهاً بنظرة جنكيز خان والمنغول منها بنظرة الهان الصينيين، وقد انطلقوا لبناء إمبراطورية أكبر من الإمبراطورية الصينية التقليدية،التي كانت قد توقفت عند آخر قلعة في جيايوغوان.

وهذه نقطة حاسمة لأن ما ورثته الصين الحديثة هو جوهرياً إمبراطورية مانشو. ولو أن أسرة شينغ من العام 1644 إلى العام 1912 كانت قد حُكمت من صينيين من الناحية العرقية، لشككت في أنهم كانوا سيتوسعون إلى تركستان التيبت. (وأنت تتذكر أن أسرة مينغ الصينية من الناحية العرقية، وحكمت من العام 1368 إلى 1644، كانت قد حرقت كل سفينة في أسطولها، وهو فعل لا تكاد تقدم عليه بلاد ميالة إلى التوسع.) ولكن بعد أن تم توسيع إمبراطورية مانشو تلك، صارت المسألة مسألة شرف وكبرياء لحكام الصين اللاحقين للإبقاء عليها، ولو بعد أن أطيح حكام المانشو، في العام 1912.

في أواخر القرن التاسع عشر، صار المسلمون في الشمال الغربي أكثر مقاومة، وتغيظاً من سيطرة بكين، واندلعت التمردات. لقد كان قهر شينكيانغ والاستيلاء عليها شيئاً بالنسبة إلى المانشوز، أما حكمها فقد ثبت أنه شيء آخر تماماً. وآنئذٍ تغيرت سياسة بكين من سياسة تترك «هم» ليبقوا «هم» في أسرة منا «نحن» إلى سياسة تحاول محاولة نشيطة أن تغير «هم» إلى «نحن».

المحاولات الأولى كانت وحشية نوعاً ما ولم تكن ناجحة جداً. وبعد انتفاضة مسلمة في المنطقة، في العام 1877، قام جنرال صيني اسمه تسو تسونغتانغ، مع جيش ضخم تحت إمرته، باجتياح كل شينكيانغ، وأجبر المسلمين على أن يغيروا عاداتهم إلى العادات الصينية، وأجبرهم على تعلم اللغة الصينية في المدارس.

بعد ذلك تناقص التأثير الصيني في شينكيانغ حين انهارت البلاد بعد فشل ثورة العام 1912. وبعد فترة وجيزة من محاولة الإبقاء على خط حساس مع المسلمين في الخمسينيات من 1950، انطلق الحزب الشيوعي في محاولة صينية ثانية لتحويل «هم»

إلى «نحن» وكانت هذه المرة من خلال فرض السياسات الشيوعية ومن خلال الهجرة القسرية للصينيين الهان إلى المنطقة. في العام 1949 كان هناك 300.000 نسمة تقريباً من الصينيين الهان من سكان بلغ عددهم 4 أو 5 ملايين نسمة في شينكيانغ. وكان ذلك بنسبة 6 بالمائة من السكان. في العام 2000 أظهر الإحصاء رقم 7.5 مليون نسمة من الهان الصينيين من عدد السكان الذي بلغ 19.25 من الملايين. فإذا ضمنت القوات المسلحة في الأعداد، فإن ذلك يجعل الصينيين الهان الآن تحت نسبة 50 بالمائة قليلاً من مجموع سكان شينكيانغ. وأرقام الهان مستمرة بالنمو طوال الوقت، مع وصول المزيد من المهاجرين، الذين تجتذبهم الوظائف في الغرب المزدهر.

على الرغم من كل هذا، مازال الويغور والسكان المحليون الآخرون في شينكيانغ، مع ذلك، متمسكين بهويتهم. والصينيون أيضاً يحافظون على أنفسهم منفصلين عن الويغور. إن الجدار العظيم، الذي بني ليبقي الصينيين معزولين عن «البرابرة» قد يكون في حالة التداعي في هذه المواقع الخارجية الغربية البعيدة، ولكن الجدار العظيم في عقول الناس، والانقسامات بين مختلف الشعوب، أصلب من أن يتحطم، بالنسبة إلى الطرفين من المسلمين ومن الهان الصينيين.

وهكذا فإن بكين الآن تحاول سياسة ثالثة (في الوقت الذي تبقي فيه السياستين الأخريين). إنها تصب المال في الصين الغربية وتحاول أن ترشي الشعوب المسلمة بالفرص الاقتصادية. وفي الوقت نفسه، تستخدم الصين نظاماً تعليمياً متكاملاً على نحو متزايد، بله نظام مواصلات يتحسن على نحو متزايد أيضاً، للبدء في وقت أبكر من حياة أطفال الويغور بعملية محاولة تحويلهم من «هم» إلى «نحن».

هذه السياسة يجري تشغيلها في الزمن الحقيقي في منطقة موقف محطة حافلات الركاب في هامي، في حياة البنت ريبيا البالغة من العمر أربعة عشر عاماً. وهي فتاة صغيرة، تلبس قميصاً أزرق غير مزخرف، وبنطالاً من الجينز، وحذاء خفيفاً، وتبدو مثل فتاة هان صينية تحت العشرين باستثناء الملامح التركية الناعمة في وجهها. وهي تحتضن ـ أو يجري احتضانها بالأحرى، من أمها التي تلبس مثل امرأة تقليدية من الويغور، في ثوب طويل فضفاض، وغطاء رأس، والأقراط الذهبية.

وأمها تبكي، ووالدها، رجل وسيم بشاربين كثيفين، يقف غير مبال، ويربت بلطف على ظهر ريبيا.

قابلت ريبيا بمحض الصدفة تماماً. بعد أن تجولت لساعات في بلدة هامي التي تبعث على السرور ولكنها لا تثير الإعجاب على نحو غير معتاد، واشتريت تذكرة ليلية على متن حافلة نوم متجهة إلى تروبان، على بعد 250 ميلاً إلى الشمال الغربي. وريبيا هي واحدة من أربعين طالباً وطالبة من الأقليات العرقية في هامي، ومن آلاف من جميع أنحاء شينكيانغ، يركبون حافلة ليلية في هذا المساء الصيفي المشرق إلى عاصمة المنطقة أرومجي. وكل الأربعين منهم يتحركون حول المحطة، وأضيفت حافلة إضافية لتحتوي التدفق الزائد لرحلة الاثنتي عشرة ساعة.

في أرومجي سوف يشاركون في برنامج توجيهي مع المسؤولين التعليميين المحليين قبل أن يستقلوا جميعاً قطاراً ويتجهوا شرقاً، إلى المدارس الثانوية في شنغهاي، وشيامين، وتيانجين، ومدن أخرى بالقرب من شاطئ الصين على المحيط الهادئ.

ريبيا طالبة متفوقة من قمة طلاب الثانوية في هامي، وهذه مكافأة لها على دراستها الجادة. وهي تتحدث من قبلُ اللغة الصينية الماندارينية من دون لكنة، على خلاف والديها، اللذين كانت لغتهما الماندارينية مغلفة بلكنة ثقيلة جداً من آسيا الوسطى. وتختار الحكومة أفضل الطلاب والطالبات من الأقليات العرقية في كل المدارس في شينكيانغ التيبت، وتقدم لهم أماكن في المدارس مدفوعة التكاليف في الصين الشرقية. السفر، والرسوم، والكتب، وكل شيء مدفوع من أجله سلفاً. إنه عرض تجد معظم العائلات أن رفضه مستحيل.

وتقول الحكومة الصينية إن سياستها تقدم فرصة عظيمة لهؤلاء الأطفال للحصول على تعليم أفضل كذلك، وذلك صحيح. وريبيا متأثرة عاطفياً لأنها ذاهبة. ولكن المنتَج الفرعي للسياسة هو أن صفوة شباب الويغور تذوب هويتهم العرقية ويصيرون في سنوات تشكيلهم، صينيين أكثر بكثير. وبالنسبة إلى الحكومة الصينية، إنها طريقة ناجعة في التأكد من أن جيلاً من الأقلية العرقية من أصحاب أعلى الإنجازات في شينكيانغ يصير جيلاً أكثر شبهاً بالجيل الجديد من الصينيين الهان في مشرق البلاد.

يعتقد بعض المراقبين أن من المحتمل أن تتبع الصين مسار تايوان وكوريا الجنوبية والنمور الآسيوية الأخرى، وسوف تتطور، مع النمو الاقتصادي وظهور المجتمع المدني، تطوراً بطيئاً نحو الديموقراطية.

وهناك عدة أسباب للخوف من أن التغير السياسي في الصين سوف يكون مختلفاً عن تايوان وكوريا الجنوبية. وأحد الأسباب هو ببساطة حجم الصين. فكوريا الجنوبية بما يصل إلى 48 مليون نسمة، وتايوان وما يصل إلى 22 مليون نسمة، كلتاهما أصغر من معظم مقاطعات الصين. واستغرقت كلتاهما عدة عقود فقط للتصنيع والتحضير، وإنشاء طبقة وسطى طالبت بعد ذلك بالإصلاح السياسي. أما عدد سكان الصين فهو ستون ضعفاً من السكان في تايوان، وحتى الآن كانت الحكومة الصينية متبصرة جداً في شأن حملة أسهم الطبقة الوسطى الجديدة في الحالة السياسية القائمة.

وسبب آخر للخوف من أن الصين لن تسلك نفس المسار السلس نسبياً إلى الديمقراطية هو ما يدعى المسألة العرقية. فتدفق الصينيين الهان إلى الغرب من الصين يغير السكانيات هنا تغييراً سريعاً. ولكن لو أن القوات الصينية نقلت من شينكيانغ ومن التيبت اليوم، فأنا أعتقد أن من المحتمل أن يكون هناك انتفاضات غداً. ويجب على القادة الصينيين أن يكونوا مهتمين كذلك بشأن إعطاء التصويت للويغوريين وللتيبيتيين اهتماماً أكبر من اهتمامهم بشأن إعطائه إلى الهان الصينيين. وذلك هو السبب الذي من أجله تحرك بكين عجلتها بهذه السرعة العالية جداً لتجعل الويغوريين التيبيتيين أكثر «صينية»، وذلك من أجل أن يكونوا، إذا جاءت النقطة الحاسمة (أو إن لم تأت) قد اندمجوا اندماجاً جيداً في الصين، اندماجاً هو أكثر من أن يجعلهم يرغبون في اختيار ألا يندمجوا.

بالإضافة إلى تجمع أطفال الويغور وعائلاتهم ليصعدوا إلى حافلة الركاب، هناك الكثيرون من الصينيين الهان. وأنا أقف لمدة أتجاذب أطراف الحديث مع الناس في كلتا المجموعتين في الوقت الذي ننتظر فيه جميعنا، ومن الواضح أن جيل ريبيا قد تغير تغيراً كبيراً من قبل. الجيل الأقدم من الويغور ومن الهان هو في الواقع شعبان اثنان مختلفان اختلافاً كاملاً.

أكبر السيدات سناً في أثوابهن المنسدلة وأغطية رؤوسهن ينسجمن في كل مكان من إسطنبول إلى طشقند.

والرجال الويغور يلبسون لباساً أكثر شبهاً بالصينيين من الهان. واختلافهم الرئيسي يأتي من شعر الوجه. يستطيع الرجال الصينيون أن يكونوا ذوي مظهر رجولي، ولكنهم يسعون إلى فعل ذلك من دون مساعدة من الشعر غير المحلوق في الوجه. وهذا يبدو غريباً للزائرين الغربيين، وذلك نظراً إلى أنه في العقل الغربي، فإن كل حقير ابن مدفع* سبق له في أي وقت أن تسكع إلى بار صالون في هذا الجانب من مدينة دودج سيكون طبعاً قد قفز عن صفحات الهندام والمظهر في مجلة «فصلية الرجال».

الويغور الرجال كثيفو الشعر مثل الغربيين. وفي الحقيقة، يستطيع الرجل الويغوري أن ينمي في وجهه شعراً في نصف ساعة أكثر مما يستطيع أن ينميه رجل صيني في حياته، وجميع الويغور هنا تقريباً لهم شوارب أو لحى. بالنسبة إلى الويغور، شعر الوجه علامة الذكورية، وذلك في حد ذاته كاف ليشكل رابطة بين الغربيين والويغور أقرب من الرابطة بين الغربيين والصينيين. وإذا وضعنا ذلك ببساطة، فإنهم يبدون مثلنا نحن إلى حد أكبر.

اليوم، مع ذلك، فإن الجماعات المتباينة، بغض النظر عن إعفاء اللحى، مختلطة معاً مثل حبات الحلوى الهلامية الملونة المصنوعة على شكل حبات الفاصولياء (جيلي بينز) في زوج من الحافلات الذهبية اللامعة متجهة نحو الغرب إلى عاصمة المنطقة. وانطلقت حافلتنا أخيراً من قطعة الموقف المغبر، وأم ريبيا الباكية تضع يدها على فمها لتخنق نشيجها وهي تلوح بالوداع.

تستغرق الرحلة إلى توربان ثماني ساعات تقريباً. وهذه الحافلة حافلة نوم، والأسرّة مرتبة في ثلاثة صفوف ضيقة بشكل طولي على طول السيارة، مفصولة

* يشير التعبير إلى الأطفال الذين كانوا يولدون على متن سفن الأسطول البريطاني سفاحاً. وجاء الاسم بهذه الصيغة بأن الفاعلين كانوا يفعلون فعلتهم في ذرى المدافع. (المترجم)

بممرين ضيقين. وكان سريري علوياً في الخلف تماماً، وكان يجب علي أن أتسلق، وأخطو بدعسة على سرير المسافر الموجود تحت سريري. وهو يومئ بتحية وأنا أرفع حقيبتي إلى الأعلى وأتسلق إلى السرير الصغير.

إنه غروب رائع للشمس فوق غوبي، وأنا أراقبه، مفعم بخيالات طريق الحرير، والحافلة تتجه نحو الغرب على طول الطريق 312. توهج الشمس البرتقالي ينمو أثرى ألواناً وهي تغرب، وتصب التألق والدفء على منظر طبيعي فارغ من اللون. وكان يمكن لي أن أستخدم المزيد من حافلات النوم عائداً إلى الشرق لو أنني لم أكن أرغب في أن أقفز خارجاً من السيارة عدة مرات لأتكلم مع الناس على طول الطريق. هنا، يوجد قلة قليلة جداً من الناس الذين يعيشون على الطريق، وهي مجرد خط واحد في كل اتجاه، وهكذا لا يوجد سبب حقيقي للوقوف، والسفر في حافلة نوم يعني أنه لا يتوجب علي أن أستهلك يوماً كاملاً مسافراً عبر الصحراء المفتوحة.

وفي أثناء غروب الشمس أقفز نازلاً وأجلس مع الرجلين الصينيين من الهان الموجودين على السريرين السفليين. كلاهما يعمل في شركة آلات ثقيلة. وهما يزوران الأماكن التي سبق أن بيعت فيها آلات شركتهما ويعرضان الصيانة للشركات التي اشترتها. في هذه الرحلة فقط، يسافران كل الطريق في شينكيانغ ونزولاً إلى شينغاي، حيث وردا تجهيزات من أجل بناء طريق السكة الحديدية للتيبت.

وأقول لهما: «أنتما أيها الرجلان تقومان حرفياً ببناء البلاد». وهما يضحكان.

أعلاهما منصباً، واسمه لي، له قصة شعر قصيرة وصوت عميق. وهو رجولي المظهر جداً ولكنه أيضاً مؤدب جداً، وهو تماماً من نوع الرجل الذي تريده أن يزور منشآتك في الصين الغربية، أو يقوم بدور الشرطة لأقلياتك العرقية من أجل تلك المسألة. وينظر إلي في العيون ويروزني ليقومني بعناية، ولكنه يضحك ضحكة سريعة وله سلوك كريم.

صديقه الذي لا يخبرني باسمه، بدين وبشوش، ومن الواضح أنه يلعب دور التابع لصديقه لي. وأسألهما ماذا يريان بشأن شينكيانغ. وينظر لي إلى الخارج إلى الشمس

الغاربة فوق الصحراء وبلدة هامي تختفي وراءنا ويقول: «إنها ملحمة، إنها رائعة، إنها غامضة، إنها... لا تكاد تصدق. وأنا أعتقد أن على كل رجل صيني أن يرى هذا المكان. لقد كانت هنا منذ مئات، وآلاف السنوات، وسوف تبقى مع ذلك هنا في آلاف السنين. إنها تجعلني أشعر مثل نصل من العشب».

نادراً ما سمعت شخصاً صينياً يتحدث بتلك الطريقة عن أي شيء. وينظر لي إلى خارج النافذة إلى المنظر الطبيعي القاحل وهو يلمع ماراً في ضوء الغسق نصف المضيء.

هو وصديقه كلاهما متفائل للغاية حيال المستقبل. وكلاهما في عمل جيد، إنهما يعملان شيئاً ما لبلادهما. الصين، كما يقولان، تتحول إلى بلد أغنى. والصين تتحول إلى مكان أفضل للعيش فيه.

ونتحدث مدة من الزمان، ثم أتمنى لهما ليلة سعيدة وأتسلق عائداً إلى سريري، ولا أستطيع أن أزيح عيني عن القمر البرتقالي الذي يبزغ، مسافراً إلى جانبنا ونحن نسارع نحو الدخول في الليل. لقد كتبت ميلدريد كيبل بعض أفضل الأوصاف لعبور هذا الجزء من الصحراء. وكان الثلاثي قد سافر بمعدل ثلاثة أميال في الساعة على عربتهم المجرورة بحمار، ولكن إحساس ميلدريد بروح الصحراء مازال إحساساً يستطيع المرء أن يستشعره اليوم، وهو ينظر إليه من سرير أيضاً في حافلة ركاب ضخمة ذات ضجيج من صناعة صينية تسافر بسرعة تساوي عشرين ضعفاً من سرعة عربة المبشرات الثلاث.

> ويرِينُ الصمت على كل الجماعة. وتعرف البغال عملها، وسائقو العربات... تمشي بثقل في ضوء النجوم، بأقدام واثقة. والمسافر، إذا كان خط اتصالاته مع الله مفتوحاً، يجلس بإحساس مستغرق بما هو إلهي وهو الإحساس الذي يضبط التعبير عن الذات، ويأمر بالسكون المتوتر من أقصى الاحترام. النفس تتولى السيطرة على الروح المعبرة عن ذاتها... لقد أمسكت بك الصحراء، وأنت، المدعو معلم الرجال، سوف تتعلم... والإنشاءات المصنوعة من الإنسان لن تبدو ثانية جليلة المهابة.

21
«الصين قوة استعمارية»

«ما اسمك ؟» يسألني ذلك الرجل الويغوري الشاب غير الحليق وهو يجلس إلى الطاولة التي تليني، في مقهى صغير ولكنه متألق في توربان.

وأخبره بأني «روبرت». (كثير من الناس في آسيا يجدون مشكلة مزعجة في الصيغة القصيرة من اسمي).

ويسألني باللغة الإنجليزية وهو يرفع حاجبيه: «مثل روبرت البروس؟»

وأجيبه: «نعم ! كيف يا ترى تعرف عن روبرت البروس ؟» الملك الذي سميت باسمه كان ملكاً لإسكتدلندا في القرن الرابع عشر. وبعد هزائم أولية أوقعها به الإنجليز، لجأ إلى كهف، وكما يعرف كل طفل بريطاني في المدرسة، فقد رأى روبرت البروس وهو في الكهف عنكبوتاً يحاول أن يبني نسيجه ولكنه يفشل مرة تلو الأخرى. وفي النهاية، نجح العنكبوت في أرجحة نفسه بعيداً بما فيه الكفاية لإكمال نسيجه، وهذا الدأب أقنعه أنه هو نفسه أيضاً يجب أن يداوم الدأب حتى يهزم الإنجليز، وهو ما فعله كما ينبغي في معركة بانوكبيرن في العام 1314، مؤكداً بذلك الاستقلال الإسكتلندي.

ويقول صديقي الجديد: «قرأت عنه في كتاب».

وأجامله على معلوماته عن التاريخ الإنجليزي وأخبره عن نظريتي بأن شينكيانغ التيبت مثل إسكوتلندا. وتستطيعان الانتهاء إلى وضع مثل وضع جارة إنجلترا الشمالية ضمن المملكة المتحدة، أن تكونا محتوَيَتين ضمن بلد لا يريدان أن يكونا جزءاً منه، ولكن بعد بضعة قرون، ستكونان غير قادرتين أو غير راغبتين في بذل الجهد للانفصال. وهو يصغي باهتمام.

ويسأل: «هل مازال الإسكتلنديون يتحدثون لغتهم الخاصة؟ هل مازالوا لهم تقاليدهم الخاصة ؟»

«لم يحتفظوا بلغتهم، مع أنهم مازالوا يحتفظون لهم ببعض التقاليد. ومنها تنوراتهم الرجالية إلى الركبة، طبعاً».

«ماذا ؟»

«التنورات الرجالية إلى الركبة. مثل تنورات النساء. الرجال الإسكتلنديون يلبسون تنورات».

ويقول: «أترى، نحن أفضل حالاً من الإسكتلنديين. نحن مازلنا نمتلك لغتنا الخاصة. ورجالنا لا يلبسون التنورات».

وأجبته فوراً. وهو يقول إن اسمه مراد. وهو في العشرينيات من عمره، ونظراته الآسيوية الوسطى ـ أنف أقنى مرتفع القصبة ووجنتان عاليتان ـ تفصله عن الكثيرين من الصينيين الذين تقع عليهم العين في شوارع توربان.

ونغوص مباشرة إلى محادثة شديدة وصريحة جداً عن العلاقات بين الويغور والصينيين الهان، وعن مستقبل شعبه.

ويقر هو أخيراً، وقد اتخذ مقامرة محسوبة، ولكنها مأمونة نوعاً ما، بأني لن أبيعه إلى أي شرطي صيني عابر، ويقول: «الأمور تصير إلى الأسوأ هنا».

وأسأله: «ما الذي يصير إلى الأسوأ ؟» أسأله وأنا أعتقد أنه قد يقصد في كلامه التحدث عن الاضطهاد المباشر والمادي للويغور على أيدي الهان الصينيين. ولكنه لا يتحدث عن ذلك قط.

«المزيد من الويغور يختارون أن يرسلوا أطفالهم إلى مدارس الهان الصينية. ليس ذلك واجباً عليهم، ولكنهم يفعلونها، لأنهم يعرفون أن هذا هو المكان الذي يكمن فيه المستقبل. وفي مدارس الويغور أيضاً، يتعلم الأطفال اللغة الصينية في المرحلة الأولى. كان ذلك يجري في العادة في المرحلة الثالثة. في غضون عشرين، ثلاثين، خمسين عاماً، ربما لن يكون أحد قادراً على أن يتحدث أو يقرأ أو يكتب لغة الويغور مثل الإسكتلنديين تماماً. سوف نفقد لغتنا. بل الآن، يستطيع الكثيرون من الأطفال أن يتحدثوها ولكنهم لا يكتبونها».

بعض الناس الآخرين يجلسون إلى طاولة بقربنا، ولذلك فهو يخفض صوته.

كانت حافلتي قد وصلت في الساعة 3:30 بعد الظهر، وسجلت وصولي في فندق ونمت لوقت متأخر. ونتيجة لذلك، أخفقت في الالتحاق مع الجولة الجماعية في الأماكن المثيرة للاهتمام في أنحاء توربان. وبدلاً من ذلك التقيت بمراد صدفة. لقد اقترب مني وأنا آكل وجبة صباحية متأخرة تجمع الفطور والغداء وتحدث معي باللغة الإنجليزية.

هناك افتراض عام بين الويغور وهو أن الغربيين متعاطفون مع بلواهم. والشيء نفسه صحيح بين أهل التيبت، وهم في العادة مصيبون. وجزء من ذلك هو مجرد ميل غربي لدعم المظلوم، إضافة إلى معارضة عامة لاضطهاد الحزب الشيوعي لأي شخص، سواء أكان من الهان الصينيين أو من الويغور أو من أهل التيبت. وربما يكون أيضاً شيئاً يتعلق بنمو الشعر القصير في اللحية. فأنا أقارن بشكل سري لحية مراد بلحيتي، وأظن أنه قد يفعل الشيء نفسه.

تبادلنا الأحاديث لنصف ساعة عن شينكيانغ، وأمريكا، وأوروبة، ثم أخبره بما آمل أن أفعله في توربان. «لقد أردت دائماً أن أنام في العراء في الصحراء. فأين يوجد مكان لنذهب إليه ؟»

ويبتسم من الفكرة وينظر إلى ساعته. «سوف أتحدث إلى أخي». ونتبادل أرقام الهواتف الخليوية ونتفق على التحادث لاحقاً في اليوم نفسه.

منخفض توربان هو أخفض مكان في الصين، وثاني أخفض مكان في العالم (بعد البحر الميت)، عند 426 قدم تحت مستوى سطح البحر. وهو أشد الأماكن حرارة في الصين، مع أعلى درجة حرارة مسجلة وصلت إلى 121 درجة فهرانهايت (49 درجة مئوية). والمنخفض حوض صحراوي يغطي 20.000 ميل مربع وفيه من السكان 170.000 نسمة، ثلاثة أرباعهم من الويغور والباقون من الصينيين الهان.

والمحصول الرئيسي هنا هو العنب، وفي وقت زيارتي، بدأ الموسم قبل قليل. ويمكن رؤية شاحنات مليئة بالعنب الأخضر الطازج في الشوارع، والسلال المليئة بالعنب يجري

فرزها على جانب الطرق. وبعض ممرات المشي مغطاة بتعريشات العنب، وهو ما يوفر ممرات مشي ظليلة رائعة ويحمي المشاة من الحرارة القاسية من شمس الصيف.

وباستثناء الأعناب، فإن المدينة نفسها ليست جميلة على نحو خاص. هناك أجزاء جذابة قديمة، ولكنها مثل كل المدن في المناطق الغربية، يوجد فيها قسم صيني حديث يمكن أن يكون موجوداً في كل مكان في البلاد. تمتلك البلدة شعوراً حلواً فيها، مع ذلك، وكثير من الأجانب، وخصوصاً حملة الحقائب، يحبون أن يسترخوا هنا لبضعة أيام لا يفعلون شيئاً. وفي الفندق في ذلك الصباح، التقيت صدفة بشخصين سويديين ملتحيين كانا قد ركبا طوال كل الطريق من أوروبة، مع سلتين صغيرتين على دراجتيهما ما كان يمكن لهما أن تحتويا على أكثر من غيار ملابس وزجاجة ماء.

فإذا أخذنا بالاعتبار حقيقة أننا في وسط الصحراء، فإن في توربان عدداً مثيراً للدهشة من الأماكن المثيرة لاهتمام الزوار. وأول هذه الأماكن هو نظام ري قديم معروف باسم «كاريز» التي تعني «بئراً» في لغة الويغور. وكان هذا النظام قد صمم منذ أكثر من ألفي سنة، وتدين توربان بوجودها لهذا النظام. وهو مصنوع من عشرات من الأنفاق الطويلة تحت الأرض، وهي تربط البئر الرئيسية في الجبال الواقعة شمال توربان بالمدينة وأرض المزرعة أسفل منها. لا حاجة للمضخات، ولا لأي شكل من التقانة الحديثة، ولا لمواد بناء. فالماء ينساب بشكل كامل بفعل الجاذبية. ويُخفض التبخر بالمحافظة على القنوات تحت الأرض.

والعلاقات المتوترة بين الصينيين الهان وبين الويغور واضحة في المحلة الصغيرة السياحية التي تحتوي على الكاريز أو البئر. المجمَّع كله يعطي شعوراً مثل المتنزه المتحف الذي يركز على موضوع واحد، مثل قرية هنود حمر في أمريكا الشمالية، ففيها تستطيع أن «تخبُر» ثقافة أمريكية محلية. أهلاً إلى عالم الويغور! خذ صورتك التذكارية مع فتاة ويغورية حقيقية ترقص! واجعلها تمسك عناقيد العنب فوق فمك!

بعد أن تكون قد مشيت لترى جداول الماء التي تنساب تحت الأرض قادمة من الجبال إلى المدينة، فإنك تخرج بعد ذلك إلى سوق اصطناعي، تجد فيه مجموعات صغيرة من النساء الويغوريات يتخذن مواقع على مسافات فاصلة منظمة بين الأكشاك. النساء

كلهن جذابات، وبنيتهن قوية، ويلبسن حتى أعلى مستوى الملابس الويغورية التقليدية المتألقة. وحين تأتي نحوهن كل مجموعة من السياح الهان الصينيين، تأخذ النساء وضعاً، مثل حيوانات تؤدي أدواراً نوعاً ما. إحدى النساء توازن طاسة من عناقيد العنب على رأسها وكأنها تجلس من أجل عمل رسم لها في عصر النهضة الأوروبي. وثلاث نساء أخريات يجلسن إلى طاولة وكأنهن يجلسن من أجل وليمة رومانية، ومرة أخرى مع عناقيد العنب في وضع الجاهز. وزوج آخر من النساء تتحركان باسترخاء حول المكان تصغيان لموسيقى الويغور، جاهزتين للقفز والرقص لدى وصول المجموعة الثانية من السياح.

أقليات الصين العرقية تقوم بالكثير من الرقص. أو هي على الأقل تفعل ذلك، في عقول الهان الصينيين. هناك تقريباً تفكير نمطي بالقدر نفسه في العقل الصيني حول الشعوب الإسلامية مثلما كان يوجد (وربما ما زال يوجد) في العقل الغربي. حين ترى البرامج حول الأقليات العرقية على شاشة التلفزة الصينية، فكل ما يفعلونه في أي وقت هو الرقص، فالرقص، فالرقص. وهم يمسكون عناقيد العنب في أثناء رقصهم. والحديث عن الصين وكيف أنها أسرة واحدة كبيرة سعيدة.

والباعة يضغطون ويلحون على الزوار مثلما يفعل الباعة في كل مكان. وحين أقف لأنظر إلى إشاربات جميلة صوفية ناعمة، أُحاط بباعة آخرين يعرضون علي أسعاراً متضخمة بشكل مضحك. آنئذٍ أدرك أن كل الباعة صينيون هان، وفي نوبة من الاستياء والتضامن مع الويغور، أقرر ألا أشتري أي شيء. فإذا كنتُ سأُستَغل في شينكيانغ، فأريد على الأقل أن أستغل من ويغور.

يهاتفني مراد ويقول إننا نستطيع أن نسوق سيارتنا إلى خارج المدينة إلى كثبان الرمال في هذه الليلة. ونرتب أن نلتقي فيما بعد في ذلك الأصيل، وهو مصحوب بصديق ـ أخ ابن عم (الوصف يتنوع)، وهو الذي يقود سيارة فولكس فاجن قديمة. وصديقه ـ أخوه ـ ابن عمه يتحدث الصينية قليلاً وأقل من ذلك الإنجليزية، وهو يقوم بكل السواقة، ومراد يجلس إلى جانبه، ويميل إلى الخلف ليتحادث معي. ويقول: «سنقوم بجولة في المشاهد المشهورة في توربان، وبعدئذٍ سوف ننام في الصحراء».

وأسأله: «عظيم. هل نحتاج إلى أن نأخذ أي شيء معنا؟»

ويقول: «أنا أملك بعض البسط من أجلنا لننام عليها، ربما نستطيع أن نشتري بعض الطعام وزجاجة من الخمر».

«خمر؟ ألست مسلما؟»

ويبتسم ابتسامة عريضة ويقول: «ربما أشرب مرة واحدة في الشهر فقط. وفي الحقيقة شربت قليلاً في الليلة الماضية، ولكنني سأجعل اليوم استثناء خاصاً بك»".

ونقف في الطريق عند سوق كبير (سوبر ماركت) ونلتقط بعض التموينات، ومن جملتها زجاجة نبيذ أحمر محلي، أنتجته شركة أنشأتها في شينكيانغ بوصفها مشروعاً تجارياً مشتركاً بين كروم عنب صينية ومستشارين فرنسيين. ثم نتجه خارجين من المدينة، راجعين على طول الطريق 312.

ويمر الطريق على الجبال الملتهبة، وكنت قد افتقدت رؤيتها في الظلام في طريق الدخول إلى المدينة. وهي جبال حمر غامقة اللون، فيها وديان صغيرة تنساب منحدرة من الجبال. وتبدو الوديان الصغيرة جداً من مسافة، وخصوصاً في توهج أوائل المساء، مثل ألسنة النار المتسلقة صعوداً في جانب التلال.

ونتوقف وقفة وجيزة عند بعض المواقع الأثرية الأخرى شرق توربان تماماً، مثل كهوف بيزيكليك الرائعة، المحفورة في وجه الجرف الشاهق على طنف ناتئ فوق نهر صغير إلى الشمال تماماً من الطريق السريع. فهذه الكهوف، مثل كهوف الألف بوذا في دونهوانغ، كانت في السابق تؤوي صوراً ضخمة رائعة، والكثير منه كانت قد سرقت بأيدي علماء آثار أجانب في بداية القرن العشرين. لقد قطعت حرفياً وأخذت عن الجدران. ونتوقف أيضاً عند كاراخوجا، وهي الخرائب الممتدة لمدينة قوات حامية عسكرية مرابطة أسسها الصينيون لتكون قاعدة من قواعدهم في هجماتهم من حين إلى آخر وغزوهم شينكيانغ.

ونحن نسوق باتجاه الغرب، يخبرني مراد القصة التي أخبره بها والده عن الكيفية التي جاء بها الصينيون أول مرة إلى تركستان. وهو يعيد اللوم كله ويضعه

على حصان. في العام 138 قبل الميلاد، قبل الغزو العسكري الأول للمنطقة من طرف القوات الصينية، أرسل الإمبراطور الصيني رجلاً اسمه جانغ شيان عبر أراضي القبيلة المرهوبة الجانب شيونغنو ليصل إلى قبيلة أخرى، هي يويجي، التي كان الصينيون قد رغبوا في التحالف معها ضد شيونغنو. وفي طريقه إلى هناك، قبض على جانغ شيان على أيد قبيلة شيونغيو وبقي في الأسر عشر سنوات. ولكنه حاول الهرب ونجح واستمر في رحلته، وفي نهاية المطاف وصل إلى وادي فرغانة (وهو اليوم في أوزبكستان)، وهناك اكتشف الشعب الذي امتلك أقوى نوع من الخيل معروف في العالم وأسرعه، والذي صار معروفاً في لغة الويغور «الحصان المتعرق دماً» بسبب الطريقة التي يلمع بها جلده الأحمر مع العرق المتصبب حين يعدو الحصان.

في العام 125 قبل الميلاد، بعد ثلاثة عشر عاماً من انطلاقه في رحلته، قام جانغ شيان برحلته راجعاً إلى بلاط الصين الإمبراطورية في تشانغآن (مع ذلك، وبشكل سهل نوعاً ما، سمح لنفسه أن يعتقل ويحتجز على أيدي شيونغنو في طريق عودته أيضاً). وأُمطِر جانغ بالثناء من الإمبراطور، الذي أعطاه لقب المسافر العظيم. وقرر الإمبراطور أن «الخيول المتعرقة دماً» كانت هي بالضبط ما كان يحتاج إليه في الصراع المستمر ضد القبائل المتنقلة نفسها في أراضي السهوب، وقرر أن يحصل على بعضها، وهكذا بادر إلى أول غزو صيني لتركستان. ويتحدث الصينيون عن هذا بكونه بداية طريق الحرير، وبداية دمج تركستان مع الصين، وذلك على الرغم من أن السيطرة الصينية، كما سبق أن رأينا، على ما يعرف الآن باسم شينكيانغ كان متفرقاً على أحسن الأحوال حتى الخمسينيات من 1750.

«أترى هؤلاء؟» يصيح مراد بهذه الكلمات غاضباً ملتفتاً إلى الخلف نحوي في وجه الريح التي تندفع إلى داخل النوافذ المفتوحة على وسعها. وهو يشير إلى عشرات من مضخات النفط التي تومئ بحركة مضخاتها على جانب الطريق، في ظلال الجبال الملتهبة. «هذه آبار نفط وهي تقريباً بعمق ميلين. وتضخ عشرة أطنان نفط في اليوم. أين تذهب كلها؟ أنا سأخبرك إلى أين. شرقاً، من أجل الصينيين الهان ليستخدموها. كم نحصل نحن من نفطنا لنستخدمه؟ لا شيء. كم من الويغوريين تستخدم شركات

النفط؟ لا تستخدم شخصاً واحداً. هذه أرضنا وهم يستغلونها، ولكننا لا نستفيد منها ولو شيئاً ضئيلاً».

ويخبرني عن خط أنابيب غاز طبيعي كان قد تم بناؤه من جنوب شينكيانغ إلى شنغهاي، ناقلاً غاز الغرب إلى الشرق. ثم إنه يقولها. وهو يستخدم التعبير الذي كان يدور في ذهني طوال الوقت ولكنني لم أقله.

يقول: «الصين قوة استعمارية، إنها تحتلنا وهي ببساطة تستخرج مواردنا».

لا أحد يستطيع أن يقول ذلك النوع من الكلام علناً، على الرغم من أن الويغور يقولونه أحدهم للآخر طوال الوقت. وبالنسبة إلى حكومة بكين، وهي شديدة الانتقاد للإمبراطورية وللاستعمار الغربيين، فإنه لعنة لها أن يكون مواطن صيني هو الذي قد يوحي بأن الصين نفسها مذنبة بمثل هذه الجريمة. ولكن مراد وهو يسير مسرعاً على طول الطريق في سيارة مع صديق ويغوري قديم، ومع غربي متجول كثير التسآل، ولا تسمعه إلا الريح فقط، فإن مراد، وهذه هي الحال لا يهتم بشأن التلفظ بمثل هذه الكلمات الممنوعة.

بعد ساعة من سواقة السيارة، وضوء النهار يتلاشى بعيداً، نوقف السيارة، ونخلع أحذيتنا، ونتجول حفاة عبر قعر مجرى نهر جاف. ثم نقوم حرفياً بالتسلق حبواً صاعدين في الكثبان الرملية. الكثير من الصحراء حتى الآن كانت أراضي شجيرات حصبائية بسطح قاس أصفر. وهذه هي أول كثبان رملية حقيقية رأيتها منذ دونهوانغ.

الشمس تغرب غروباً بهياً، وأقترح أن نتوقف، وإلا فإننا سنفتقد رؤية الغروب. ونجلس في منتصف الطريق صاعدين إلى الكثيب، وأنا أسحب زجاجة الخمر من نوع لولان وبريمة السدادات وثلاثة أكواب بلاستيك من حقيبتي. وأشعر أن الموقف غرائبي (سريالي) أن أكون جالساً في صحراء غوبي مع اثنين من المسلمين نكرع زجاجة خمر أحمر. وأقترح أن نشرب نخباً للويغور في كل مكان. ويبتسمان، ونجلس نحن الثلاثة بصمت لا غير ونراقب الشمس وهي تغطس في غمامة من اللون البرتقالي المسرف الجمال.

ثم يتوجه صديق ـ أخ ـ ابن عم مراد إلى السيارة، وفيها سوف يقضي الليلة، وتابعنا نحن، الاثنين، كفاحنا صاعدين في الكثيب الرملي. وتغدو الرياح أقوى كلما تسلقنا مسافة أعلى. وهكذا فنحن نغوص في واد صغير محمي بين كثيبين، وفرشنا بسطنا على بعد بضعة أقدام، واستلقينا.

ويبزغ القمر جميلاً مثلما هو دائماً فوق الصحراء، أشد بياضاً، وأكبر، وأشد استدارة من كل وقت مضى. وفي أثناء استرخائنا هناك، ونحن ننظر إلى القمر أعلانا، أسأل مراد كل الأسئلة الحساسة للغاية عن الويغوريين، والصراع ضد الصينيين، وإن يكن الآن صراعاً نفسياً فقط.

ويقول: «إنها ليست مأساة 100 بالمائة. فليس هناك قانون يجبرنا على أن نفعل هذا. نحن مشاركون راغبون في تدميرنا الخاص».

«ولكنكم لا تملكون أي خيار، هل تملكون؟»

«لا نملك أي خيار. والطريقة الوحيدة لمعارضة الاستيعاب والدمج هي ألاَّ نذهب إلى المدرسة الصينية، ولكنك إذا لم تذهب إلى المدرسة الصينية، فلن تستطيع أن تنجح، ولن تستطيع الحصول على عمل جيد. انظر إلي. فأنا لا أستطيع أن أقرأ أو أتكلم الصينية جيداً جداً. ربما أستطيع أن أفهم 60 بالمائة مما أقرؤه في جريدة. ولو كنت أستطيع أن أقرأ أو أن أكتب، لكنت سأحصل على عمل أفضل بكثير».

وتبدو المسالة تماماً مثلما سبق أن قال لي الأستاذ التيبيتي قبل عدة أسابيع. ويتوقف مراد، وتمر دقيقة وربما أكثر، ونحن نستلقي هنا لا غير، ننظر إلى الكون الواسع والنجوم الممتدة عبر هذا الكون.

ويقول: «العالم يتطور، ويجب علينا أن نشارك».

وهناك وقفة أخرى، زادها الصمت الحزين كآبة.

ويقول أخيراً: «إنه موت بطيء. وهو مأساوي، ولكن ما الذي نستطيع عمله غير ذلك؟ والطريقة التي أتعامل بها مع المأساة هي بإجبار أخي الصغير على البقاء

في المدرسة، ليحصل على التعليم الذي لم أحصل عليه، ليذهب إلى جامعة جيدة، ولكن ليستخدمها لمساعدة شعب الويغور، لا الصينيين. فنحن لا نستطيع أن نختار عدم المشاركة، يجب علينا أن نشتبك مع العالم ومع الهان الصينيين، وذلك يقود بشكل محتم إلى ذوبان ثقافتنا. ولكننا نستطيع أن نستخدمها لمنفعتنا، بأكبر قدر ممكن».

«ماذا تريد أن يفعل أخوك إذاً؟»

«ربما يدرس الطب، كي يستطيع أن يعود ويساعد في تحسين صحة شعب الويغور».

من الواضح أن مراد يؤثر تأثيراً كبيراً على أخيه وعلى أبناء عمومته الذين هم أصغر منه سناً وعلى أصدقائه، مثل سائق سيارتنا، مشجعاً لهم على المشاركة مع النظام لخدمة غاياتهم الخاصة. ولكن مراد يرسم خطاً عند أشياء معينة. فهو يحتقر جاذبيات الرقص التي تخدم صناعة السياح الصينيين في الفنادق الكبيرة والمحطات الأخرى وهو لن يترك أي واحد من عائلته يشارك فيها، ولو كانوا يدفعون بشكل جيد نسبياً. ويقول: «لماذا يجب أن نرقص لنجعل السياح الصينيين سعداء، ولنفي ببعض النماذج النمطية لما يعتقدون أننا عليها؟ فأنا أفضل أن أكون فلاحاً فقيراً على أن أترك أي شخص في عائلتي يفعل ذلك».

بعد كل بيان، هنا صمت. ليس هناك استعجال. هناك زمن لاستيعاب ما يجري قوله. كم من النادر أن يكون لدي ذلك الشعور.

«وماذا ترى في الانفصاليين الذين يحملون الأسلحة ويقاتلون الدولة الصينية ؟»
إن عدد مثل هذه الحوادث تناقص في الأعوام الأخيرة، ولكن مازال هناك احتدام للغضب من حين إلى آخر.

«حسناً ! لست جسوراً بما فيه الكفاية لأكون واحداً منهم. لي والدان. ولي أخ أصغر مني يجب أن أسنده. ولكنني أعتقد فعلاً أنهم شجعان. وأنا معجب بشجاعتهم».

«شجعان، ولكن بلا أمل، صحيح؟»

ويتوقف في الغسق. مازال الهواء دافئاً دفئاً جميلاً، ولكنني أستطيع أن أحس ببرودة الرمل عبر البساط الرقيق الذي أستلقي عليه، الرمل الذي كان حاراً يُخبز عليه قبل ساعات قليلة فقط.

وأخيراً يقول: «نعم، شجعان ولكن بلا أمل. يجب علينا أن نعترف بتلك الحقيقة الواقعة. لم يبق المزيد من الأمل من أجل شينكيانغ مستقلة. وذلك ما كنت ومازلت أقوله. دعونا نتقدم، ونتابع الاعتراف بتلك الحقيقة الواقعة، ونستفيد منها أقصى ما يمكن».

وتنسف الريح بعض الرمل في أخدودنا المحمي الصغير.

وأسأله: «وماذا عن أمريكا؟»

«نحن مسلمون. ولا نريد أن نرى المسلمين يقتلون. ولكننا أيضاً معارضون للإسلام المتطرف، مثل طالبان. إذا حكم الإسلام مثل ذلك الحكم، فسيكون كل واحد حينئذٍ فقيراً ومتخلفاً. ولو أن صداماً كان حاكماً أفضل، لما هاجمته الولايات المتحدة. وفي الحقيقة، ليس لدينا سبب لنكره أمريكا. هناك شعب آخر نكرهه كراهية أكبر».

وتنساب الريح مرة أخرى إلى وادينا الصغير، ولكنها ريح ناعمة، وريح نرحب بها. وبعد قليل أسمع مراداً يتنفس تنفساً عميقاً، نائما على بساطه على بعد بضعة أقدام مني. وأنا أستلقي هناك لبرهة، أسعد من أي وقت آخر في رحلتي. ربما كان الراهب الصيني شيوان دزانغ قد نام هنا في القرن السابع، والكتب المقدسة البوذية التي كان قد عاد بها من الهند مغطاة تحت خرج سرجه. وربما نام هنا أيضاً أوريل ستاين، بعد أن نهب الكتب المقدسة البوذية نفسها من الكهف المكتبة في دونهوانغ. ربما يكون هناك الكثير جداً من الخيال الرومانسي المكتوب عن طريق الحرير المجنون هذا. ومع ذلك الحديث نمت على الرمال المتحركة من الصحراء، تحت قمر ويوغوري.

وتدور الأرض بالطريقة الصحيحة حول محورها وأنا نائم، وأستيقظ في شروق الشمس المتأخر، الذي يعكس جماله على نحو كامل غروب الشمس في الليلة الماضية. وقد أودعت الريح طبقة دقيقة من رمل هب حديثاً فوقي، وهناك حبيبات منه في شفاهي وفي أنفي وفي أذني.

ونسوق السيارة عائدين إلى توربان، ونتوقف عند متجر صغير لشراء بعض الخبز التنوري الأبيض واللبن الرائب من أجل الفطور. وليس بعيداً عن البلدة، نقف مرة أخرى عند سوق للزبيب، جلب إليه مزارعو العنب منتجاتهم من كل الأنحاء. أكوام ضخمة من الأعناب، بعضها أخضر، وبعضها أحمر، مكومة فوق الأرض، والمشترون يتجولون في المكان، يتذوقون، ويجربون، ويساومون المزارعين. ويبدو أن كل المشترين من الهان الصينيين، وكل المزارعين من الويغور.

في ضواحي توربان، أغير السيارات. فقد كان مراد قد رتب لأخ ـ ابن عم ـ صديق آخر ليسوق بي سيارة إلى أرومجي، العاصمة الإقليمية، على بعد مائة ميل إلى الشمال الغربي. وأعانقه وأودعه.

ويحتمل أن يكون الجزء من الطريق 312 الممتد بين توربان وأرومجي هو أكثر امتدادات هذا الطريق روعة وتأثيراً في النفس من الطريق كله الذي سافرت عليه رحلتي الطويلة الكاملة. إنه مصنوع من قطاعين اثنين أسودين مستقيمين بشكل كامل من الامتداد المزفت عبر الصحراء، خطان في كل اتجاه، مفصولان بقطاع لمسافة عشر ياردات من أرض الشجيرات البرية القصيرة. وفي مقعد المسافر الأمامي تجلس امرأة ويغورية تلبس لباساً فاتناً نوعاً ما، تلحق أيضاً بالركوب مع صديق مراد لتذهب إلى أرومجي. وكانت ابنتها قد سافرت إلى هناك قبل يومين، في اليوم نفسه الذي سافرت فيه ريبيا، الفتاة التي كنت قد قابلتها في محطة حافلات الركاب في هامي. بعد ثلاثة أيام توجيهية مع ثلاثة آلاف طالب وطالبة آخرين، هي أيضاً ستكون متجهة إلى مدرسة ثانوية في الصين الشرقية، بالقرب من شنغهاي. وأمها ذاهبة لتراها مرة أخرى قبل أن تغادر البنت إلى الشرق.

وتقول الأم: «كل واحد يريد أن يذهب إلى الشرق، ومن الجملة الطلاب الذين لم يكونوا جيدين بما فيه الكفاية ليكونوا من المختارين لأماكن مجانية وهم يريدون أن يدفعوا نقوداً من أجل الفرصة للذهاب إلى مدرسة ثانوية في الصين الشرقية».

وعلى الرغم من حماستها لبرنامج المدرسة، تشتكي من الكيفية التي يهيمن فيها الهان الصينيون على كل مهنة في توربان. ولكنها عملية حول المكان الذي يكمن فيه

المستقبل وهي تسير في الخط نفسه الذي يتخذه مراد. الانفصال لا مستقبل له. هذه هي الطريقة الوحيدة».

ولكنها، مثل مراد ومثل الأستاذ التيبيتي الذي سبق أن قابلته على الطريق إلى شياهو، لن تسمح لعائلتها بأن تهمل هويتها.

«لو أنك قابلت ابنتي، فلن تكون قادراً إلا بصعوبة على معرفة الفرق الذي يفرقها عن فتاة صينية من الهان في الرابعة عشرة من عمرها. ولكنني أقول لها إنها ويغورية، ويجب أن تكون فخورة بأن تكون ويغورية. وأخبرتها بأنها لا تستطيع أن تتزوج شاباً صينياً من الهان، وأنها لا تستطيع أن تتزوج من شخص غير مسلم. إنها تحصل على تعليم أفضل، ثم يجب عليها أن تعود لمساعدة شعبها».

والمرأة، المتزوجة من رجل أعمال محلي، تسألني إن كنت مسافراً على طريق الحرير الجنوبي، نحو خوتان وكاشغر. وأنا أخبرها، للأسف، أنني في هذه المرة لست مسافراً على ذلك الطريق، وأنني أتبع الطريق 312 إلى الشمال الغربي من أرومجي إلى الحدود مع كازاخستان. وتقول إنها قد رجعت قبل قليل من إجازة من طريق الحرير الجنوبي، وساقت مع زوجها وبعض أصدقائهما إلى كاشغر ثم رجوعاً عبر صحراء تاكليماكان.

المستكشف السويدي سفن هيدين سمى تاكليماكان «أسوأ وأخطر صحراء في العالم». وقال أوريل ستاين إن صحاري جزيرة العرب كانت أليفة مقارنة مع تاكليماكان. واليوم بعد مائة عام، تقطعها امرأة متوسطة العمر ويغورية، تعلق قرطين كبيرين وتضع طبقات من مساحيق التجميل السميكة طلباً للسرور والإثارة.

22
من بحر إلى بحر ساطع

كانت أول مرة وصلت فيها إلى أورومجي في قطار من شيان في صيف العام 1988. بعد أيام عابراً غوبي النائية المغبرة، كنت شاكراً للوصول، وذلك على الرغم من أن أورومجي في ذلك الوقت كانت مدينة غير متطورة تثير الكآبة في وسط ناء غير معروف.

ولم أعد إليها حتى العام 2002، حين كنت أرسل التقارير الصحافية عن رد فعل المسلمين الصينيين على الهجمات التي شنت على الولايات المتحدة في9/11 . كانت أورومجي مازالت، طبعاً، في وسط ناء وغير معروف، ولكنها في تلك السنوات الأربع عشرة التي فصلت بين الزيارتين تحولت إلى لوس أنجيلوس. والآن، بعد سنوات قليلة فقط تغيرت أكثر من ذي قبل أيضاً.

كتبت المبشرة الإنجليزية ميلدريد كيبل عن أورومجي وكم كانت مكاناً كريهاً، على الرغم من أنها لاحظت أن المسؤول عن البريد هنا (والذي كان إيطالياً لسبب ما غريب) كان قد نظم نظام البريد كي يكون بالإمكان أن تصل الرسالة إلى بكين في غضون خمسة وأربعين يوماً. وسمت هذا التنظيم «إنجازاً رائعاً حقيقياً». والرسالة في الاتجاه المقابل، عبر الاتحاد السوفييتي، ذهبت على نحو أسرع قليلاً ، وكانت تصل إلى لندن في غضون ثمانية وعشرين يوماً.

أما الآن، فالناس في أورومجي يرتبطون في الحال مع بكين ولندن وموسكو بخدمة إنترنيت النطاق العريض. وتوجد في جميع أنحاء المدينة إعلانات تروج لاتصال أوسع، وأفضل، وأسرع.

عيشوا حياة النطاق العريض: هذا هو العام الدولي للنطاق العريض.

لقد تمددت المدينة، وفيها الآن من السكان أكثر من مليون ونصف مليون نسمة. وبدأت إيقاعات الصين الشرقية تتغلغل. وفي الماضي، كان القول إنه لم يكن هناك أي مدينة في العالم أبعد عن البحر المحيط من أورومجي قولاً مؤكداً لعدم علاقتها بالعالم. أما الآن فلا يبدو أن ذلك مهم، فأورومجي صارت هي قطب الرحى للصين الغربية وهي أيضاً قطب الرحى للنفوذ الصيني الذي يتدفق فواراً فوق حدود الصين مع آسيا الوسطى. بعد خمس مئة سنة من استبعاد السفر البحري لطريق الحرير وإنزاله إلى وضع من عدم الأهمية، يعاود طريق الحرير الجديد ظهوره ويصير مهماً على نحو متزايد بالنسبة إلى شينكيانغ وإلى كل آسيا الوسطى. ففي النصف الأول من العام 2006 كانت شينكيانغ أسرع نمواً من أي واحدة من مقاطعات الصين ومناطقها من حيث التجارة الأجنبية.

وأسجل في واحد من أفضل فنادق أورومجي. ومع مفتاح غرفتي سلموني قسيمة تعرض علي تدليكاً مجانياً في منشأة «حمام تدليك السونا» في الدور الخامس. (وتقول القسيمة»، السيدات اللواتي يطلبن التدليك يجب أن يأتين مقدماً») فإذا كان هذا التدليك هو نفسه مثل كل «تدليك سونا» آخر في الصين، فذلك يعني، في واقع الأمر العملي، أن هذا الفندق الخيالي، الذي يعتني بالجيش المتكاثر من رجال الأعمال القادمين للزيارة من الصين الشرقية ومن الخارج، يقوم بعرض الجنس المجاني لكل رجل يسجل فيه.

كنت أبحث عمن أود أن أتحدث إليه في أثناء وجودي في أورومجي، واكتشفت أن أنظمة سيسكو، شركة تجهيزات أعمال الشبكات الأمريكية، تمتلك مكتباً ليس بعيداً. أتجول نحوها بلا هدف معين، مؤملاً في أن يكون هناك شخص ما قد يرغب في التحدث إلي، ويطرح علي التحية مدير صيني من الهان يلبس لباساً أنيقاً، وينظر ويتحدث وكأنه قد نال ماجستيراً في إدارة الأعمال. وهو على وشك الاندفاع إلى خارج الباب إلى المطار، ليطير إلى بكين ويتابع بعدها إلى الولايات المتحدة في رحلة عمل. ويعطيني خمس دقائق من وقته.

«كانت العادة هي أن شينكيانغ كانت معروفة من أجل الأسود والأبيض فقط. النفط والقطن. ثم صارت معروفة من أجل الأسود، والأبيض، والأحمر. البندورة (الطماطم) والكاتش أب، هل تعرف أن شينكيانغ تنتج 31 بالمائة من كاتش أب العالم؟ «ويرفع حاجبيه ويبتسم». أما الآن فانظر إلينا. سيسكو هنا. وآي بي ام (آلات الأعمال التجارية الدولية) موجودة في الجهة الأخرى من القاعة تماماً. إننا لا نصنع الكاتش أب».

ويقول إن سيسكو تقوم بمجرد قيادة الطريق في سوق جديد ضخم.

«شينكيانغ الآن ليست متخلفة مطلقاً. إنها جميعاً مرتبطه. وتفكير الناس هنا كله منفتح جداً. هل تعرف لماذا؟ لأن كل واحد هنا مهاجر. إن لديهم عقلية منفتحة، عقلية مهاجر».

ليس لدي فرصة لأسأله كيف يعتقد أن الويغور يشعرون بشأن هذا، وذلك لأنه يقوم بالاعتذار ويندفع خارجاً من الباب. ومالم نجد الوقت للتحدث عنه كان موضوع سيسكو وماذا تعمل فعلاً في شينكيانغ؟ وبلا شك، سلسلة كاملة من المشروعات تساعد الشركات على الارتباط بالشبكات، ولكنها متهمة أيضاً من جماعات حقوق الإنسان بمساعدة الحكومة الصينية على مراقبة الإنترنت لمعرفة أي علامات على الانشقاق. لقد باعت سيسكو آلاف البوابات أو أدوات نقل الرسائل بين الحواسيب (الرواتر) إلى بكين، وهي تجهيزات تقول عنها جماعات حقوق الإنسان في الولايات المتحدة إنها كانت مبرمجة بمساعدة مهندسي سيسكو وهي جزء لا يتجزأ من جدار النار العظيم للصين، الذي تبقيه بكين في كل أنحاء الإنترنيت كي تضبط المعلومات داخل البلاد. وتنكر سيسكو أنها زودت الصين بالتجهيزات والتقانة لضبط ما يراه متصفحو الشبكة الصينيون. وتقول سيسكو إن التجهيزات التي تبيعها للصين هي نفسها مثل التجهيزات التي تبيعها في الأماكن الأخرى في العالم، وإنها لا تستطيع أن توقف الصين عن تكييف التجهيزات لتلائم حاجاتها الخاصة.

سواء أكان هذا أو ذاك، فحقيقة أني أقوم بهذه المحادثة نفسها هنا تقول الكثير عن التغييرات التي حدثت في المدينة وفي طموحاتها. أورومجي، مثلها مثل العديد جداً من المدن على طول الطريق 312، قد صارت أرضاً موعودة صغيرة أخرى.

في الصباح التالي أتوجه إلى سوق الويغور القديم في إيرادوشياو التي تعني «جسر الطريقين». وأنا ذاهب لأبحث عن المتاهة القديمة من الأكشاك في السوق الرئيسي التي كنت قد زرتها في العام 2002. في ذلك الوقت، كنت أبحث عن مسلمين محليين للتحدث بصراحة عن أسامة بن لادن، وعن الهجمات على أمريكا، وعن فرض السيطرة الصينية على الويغور التي نتجت عن ذلك. وقد ذهبت بكل بساطة من كشك إلى كشك في السوق الوسخ المتاهة، سائلاً بهدوء أصحاب المتاجر إن كانوا سيتحدثون إلي.

في المتجر الرابع تقريباً الذي دخلت إليه في تلك الزيارة، وهو كشك رائع قديم ممتلئ بكل نوع من الفواكه المجففة والمكسرات نظر المالك الويغوري حوله بحذر، ثم طلب إلي بلغة صينية سيئة أن أنتظر لحظة واختفى، ورجع بعد وقت قصير مع رجل ويغوري، لا يزيد عمره عن اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً، وكان يتحدث لغة ماندرينية صحيحة. هذا الشاب، الذي لم يخبرني قط باسمه الحقيقي، صار دليلي لمدة أسبوع. أخذني أولاً إلى متاهة الأزقة، نحو بيت أخيه أو ابن عمه أو صديقه. وشققنا طريقنا يساراً ويميناً عبر السوق، لنحاول أن نفقد أي شخص قد يكون ملاحِقاً لنا، وفي نهاية المطاف انتهينا إلى بيت آمن، وهناك جلس وتكلم بانفتاح شديد عن حجم كراهية الويغور للصينيين الهان وحبهم للأمريكيين.

بعد ذلك مباشرة، مع ذلك، حولت الولايات المتحدة سياساتها. وغالبية المسلمين الويغور هم من الفرع المعتدل الزاهد من الإسلام، المسمى الصوفية، وفي أثناء التسعينيات من 1990 تبنت الحكومة الأمريكية دعم حريتهم الدينية ليكون ذلك جزءاً من نقدها لسجل الصين في حقوق الإنسان. وأما بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001، فإن الولايات المتحدة قبضت على حفنة من المتطرفين الويغور، كانوا يقاتلون مع طالبان في الشمال الأفغاني، واحتاجت واشنطن إلى مساعدة بكين في الأمم المتحدة في الحرب على الإرهاب. وهكذا ففي صيف العام 2002، وافقت إدارة جورج دبليو. بوش على وضع مجموعة ويغورية سابقة غير معروفة تسمى حركة تركستان الشرقية الإسلامية على قائمتها للمنظمات الإرهابية.

إن قلة من الناس كانت قد سمعت مجرد سماع بهذه الجماعة، ولكن حركة الولايات المتحدة قدمت، ومازالت تقدم، صكاً على بياض لبكين لتفعل ما تشاء في قمع أي نوع من الانشقاق في شينكيانغ، تحت مظهر محاربة الإرهاب، من دون خوف من أي نقد من واشنطن. وبالنسبة إلى القادة الصينيين، كانت 9/11 حلماً وتحقق. فهم لم يستبعدوا الضغط عنهم وحسب وصفهم العدو التالي للولايات المتحدة بل إن الرئيس بوش كان يسمي الصين شريكاً في الحرب على الإرهاب، وكانت بكين لذلك قادرة على أن تنتزع ثمنها الخاص في شينكيانغ مقابل التعاون مع إدارة بوش. وتتهم مجموعات حقوق الإنسان حكومة الولايات المتحدة بخيانة شعب الويغور وبيعه كالعبيد إلى النهر الأصفر.

حين أصل إلى إيرداوشياو، أعتقد أن سائق سيارة الأجرة لابد أن يكون قد جاء بي إلى المكان الخطأ، لأنني لا أستطيع أن أجد السوق القديم في أي مكان. وحين أسأل رجلاً في متجر سجاد، يقول لي بلغة ماندراينية سيئة إن السوق القديم كان قد هدم. وفي مكانه يقف مبنى حديث لامع نوعي على الطراز الصيني، ويسمي نفسه كذلك إيرداوشياو. وفي خارج السوق القديم يوجد جسر فوق بركة صغيرة وبعض التماثيل البرونزية لأناس من الويغور عامة، يعملون أشياء يتخيل الناس الصينيون الهان أن الناس الويغور يعملونها: واحد يصنع خبر التنور، وواحد يعزف على آلة ويغورية. وبكلمات أخرى، فإن السوق الرابحة، الويغورية جداً، والإسلامية جداً لأورومجي قد تم تحويله إلى نوع من مركز تسوق صيني موضوعه الوحيد الويغور، وهو فرع آخر من متنزه عالم الويغور الذي سبق أن رأيته في توربان.

ولنكون منصفين للصينيين، كما سبق أن أشار إلى ذلك صديقي مراد، فليست عملية التصيين فقط هي التي تجري، إنها العولمة، وهي من نوع يحدث في كل مكان. وإلى حدٍ ما، فإن الدافع الصيني لتطوير شينكيانغ دافع أصيل جداً: إنه رغبة للشعب هناك ليحظى بحياة أفضل. ولكن نظراً إلى أن الصينيين، بالنسبة إلى الويغور، هم عملاء هذا التحديث وأدواته، فهناك مرارة خاصة فيه.

من وجهة نظر الأمن، فأنت تستطيع أن ترى لماذا يقوم الصينيون بهدم الأجزاء القديمة من المدينة وبناء أسواق جديدة للتسوق. جحور متاهة البيوت والمتاجر في السوق القديم كان مكاناً ممتازاً بالنسبة إلي كي أتفادى وأغوص، وأهمس وأتآمر حين كنت أبحث عن ويغور ساخطين. أما اليوم، فأنا أقضي عدة ساعات ماشياً أتجول في سوق إيرداوشياو اللامع الجديد، محاولاً أن أجد شخصاً ما ليتحدث إلي حديثاً صريحاً حول العلاقات بين الهان الصينيين وبين الويغور، ولا يوجد واحد يرغب في ذلك. وأضواء النيون اللامعة المحيطة بإطارات المتاجر وواجهات المتاجر المفتوحة تجعل التآمر من نوع صعب. وذلك، طبعاً جزء من الخطة الصينية.

معظم الناس من الهان الذين يعيشون في الصين الشرقية لم يسبق لهم أن كانوا في شينكيانغ أو في التيبت، وليس لديهم أي فكرة عن أن الويغور وأهل التيبت غاضبون جداً. لقد قيل لهم دائماً، إنه منذ زمان قديم لا تعيه الذاكرة، كانت شينكيانغ التيبت جزءاً من الصين، وإن كل أقليات الصين العرقية قد اندمجت اندماجاً سعيداً. وهم أيضاً واعون للمعاملة المفيدة التي تتلقاها الأقليات العرقية، وهو نوع من العمل الإيجابي الذي توظفه بكين لتحاول أن تبقي الأقليات سعيدة. وهم طبعاً، أي، الصينيون في الشرق، يقرؤون كثيراً من التقارير الإخبارية عن كل مراكز التسوق الجديدة الرائعة تلك التي يجري بناؤها من أجل شعب الويغور المحظوظ. وهكذا فهم حين يزورون شينكيانغ أو التيبت، يحتارون في الغالب من الاستقبال البارد، وأحياناً من العداوة النشيطة، التي يتلقونها من أهل التيبت أو من الويغور. وهم يسألون: ألسنا نعطيكم كل شيء؟ ألستم تنالون سياسات مفيدة؟ أليس مسموحاً لكم أن تنجبوا طفلين لا واحداً، وأن تصلوا إلى الجامعة بعلامات امتحان أقل؟

وهناك قصة مشهورة من القرن الثامن عشر، يقصها الطرفان كلاهما الهان والويغور وهي تمثل تمثيلاً كاملاً التفاعل بين الطرفين، حتى هذا اليوم.

كان الإمبراطور شيانلونغ، في أثناء الاستيلاء على شينكيانغ في الخمسينيات من 1750، قد سمع عن فتاة ويغورية تدعى إبارهان. وكان يقال إن جسدها يطلق عطراً خاصاً به، فأمر شيانلونغ بأن تُحضر إلى بكين لتكون جزءاً من الحريم الملكي. وصارت إبارهان تعرف باللغة الصينية باسم المحظية العطرة.

وأعطاها الإمبراطور حجرة رائعة وحديقة جميلة، ولكنها قضت أيامها تبكي من أجل وطنها. ثم بنى لها الإمبراطور بعد ذلك واحة مصغرة لتذكرها بقريتها في الوطن، ولكنها كانت ما زالت غير قابلة للمواساة. فبنى لها مسجداً وسوقاً وسرادقاً كانت تستطيع أن ترقى عليه وتنظر باتجاه الغرب، ومع ذلك ما زالت غير سعيدة. وأخيراً، سألها ما الذي كان سيجعلها سعيدة، وقالت إنها كانت مشتاقة إلى عطر الشجرة التي تورق أوراقها من فضة وفاكهتها من ذهب. وهكذا أرسل شيانلوغ إلى كاشغر في طلب النبات المعروف باسم الزيزفون، أو شجيرة الرمل الفضية الأوراق، وكما يقص الصينيون الحكاية، صارت المحظية المعطرة أخيراً راضية.

ويقص الويغور الحكاية نفسها، ولكنها بنهاية مختلفة. ففي نسختهم، تمشي إبارهان في شقتها في المدينة الممنوعة في بكين مع خناجر صغيرة مخبأة في أكمامها فيما لو حدث ودعاها الإمبراطور إلى غرفته الإمبراطورية للنوم. وفي النهاية تنتحر بدلاً من مواجهة هذا العار.

بالنسبة إلى الصينيين، ترمز المحظية المعطرة إلى الكيفية التي صار فيها الشعب التركي المتوحش في الغرب متصالحاً أخيراً مع كونه جزءاً من عالم الصين المتمدن والمتفوق تفوقاً لا حدود له. وبالنسبة إلى الويغور فهي ترمز كيف أنهم مع الشعوب التركية الأخرى لم يقبلوا الحكم الصيني قط ولن يقبلوه أبداً.

ولو كنت ستهدم كل المباني الويغورية أيضاً، فهناك، مع ذلك، قسمان من الحياة في أورومجي سيمكثان بعد ذلك. الأول هو الرائحة، رائحة الخبز المبسوط، ورائحة لحم الضأن المشوي، ورائحة البهارات. والثاني هو الموسيقى، ولكنها ليست موسيقى النغمات المقيسة، والمرتبة لصين الهان، بل هي أشد الإيقاعات بريّة، التي تبعث على النوم المنطلقة من السوق (البازار). كلاهما يتحرك كالدوامة في الهواء على الشارع الرئيسي بقرب إيرداوشياو. والرجال الويغور غير الحليقين يشوون كباب لحم الضأن المغموسة بالبهارات الحمراء اللامعة على نيران الفحم المفتوحة، وإذا لم تكن من قبل متفكراً في الطريق غرباً باتجاه آسيا الوسطى من أورومجي، فإن مجرد نفحة من الهواء هنا سوف تنقلك إلى هناك. وعلى الطريق على بعد أكبر، كان يتمدد أربعة

موسيقيين من الويغور بشكل كسول على مقعد، يصنعون ضجة تبدو غير متناسبة مع الطاقة التي يصرفونها. وكل الموسيقيين الأربعة يلبسون قبعات ملونة ويغورية، ثلاثة منهم ينفخون في نوع ما من الأدوات الموسيقية الهوائية الويغورية، وواحد يضرب على زوج من الطبول الصغيرة. وفجأة، يبدأ أمامهم رجل ويغوري متوسط العمر يلبس بدلة وربطة عنق بالرقص رقصاً جنونياً في الحر. ويبدو وكأنه قد خطا قبل قليل إلى الخارج من واحد من مباني المكاتب المحيطة بالمكان في ساعة تناوله لغدائه. وربما يكون الرجل ثملاً. أو ربما هو يطلق البخار، يخفف مشاعره المكبوتة. ويتجمهر جمهور من الناس وأنا أقف بينهم، وأراقب الرجل يدور مثل درويش مكتب في رصيف الممشى الجانبي.

وهكذا، وأخيراً، إلى مكان من الجمال السامي. الصين بلاد جميلة جداً، ولكنني أفترض أن الطريق 312 لا يشهد حقاً على أفضل ما فيها. والشرق والوسط منبسطان، منبسطان، منبسطان. والجبل المزهر، بالقرب من شيان، مؤثر وسحري رائع. وهضبة التيب في شياهو جميلة بطريقة من نوع بري. وهضبة الراسب الطفالي ترابية أرضية وحقيقية. وغوبي، طبعاً، لها جمالها الخاص الطبيعي، المفتوح انفتاحاً واسعاً. ولكنك إذا كنت تريد جمالاً طبيعياً رائعاً مؤثراً تأثيراً بهيجاً، تقف إلى الخلف وتحدق فيه في حدود ساعات قليلة من الطريق 312، فليس هناك سوى محلات قليلة يمكن مقارنتها ببحيرة السماء.

هناك ثلاث سلاسل جبال تمتد عبر شينكيانغ مثل أصابع مفرطة الامتداد من الغرب، وبين السلاسل الثلاث يوجد حوضان. جبال ألطاي تسير على طول الحد الشمالي لشينكيانغ. وجبال بامير وبعدئذٍ جبال كونلون تسير على طول الحد الجنوبي لشينكيانغ مع الهند التيبت، وتقطع جبال السماء فرجة عبر الوسط. وتقع بحيرة السماء على الجانب الشمالي من جبال السماء، على مسافة سياقة ساعتين ونصف شمال شرق أورومجي.

كنت أستكشف المدينة مع سائق سيارة أجرة من الصينيين الهان كان اسمه ون، وكان قد أراني واحداً من أقطاب رحى النقل في أورومجي، وهو مساحة موقف ضخم

تحمل فيها الشاحنات بالمنتجات لتتجه نحو الشرق إلى شنغهاي ونحو الغرب إلى آسيا الوسطى. اللافتات مكتوبة باللغة الصينية، وباللغة الويغورية وباللغة السيريللية.

ويخبرني السائق ون أن والديه قدما إلى المنطقة في أول الأمر بصفة أعضاء في مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء، المعروفة في الصين، وهي نوع من وكالة تطوير شبه عسكرية تشكلت في الخمسينيات من 1950، ومكونة من صينيين هان من الشرق من الذين كانوا عسكريين وفلاحين معاً. وكانوا قد قورنوا بجماعة الإسكان في أمريكا في القرن التاسع عشر *، أو يوصفون أحياناً بأنهم «مستوطنون». أرسلوا لحماية الحدود المثبتة حديثاً للجمهورية الشعبية ولتحويل الصحراء إلى أرض خضراء.

مازالت مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء موجودة وهي دولة صغيرة في حد ذاتها، وهي أكبر رب عمل ومالك للأراضي في شينكيانغ. وهي منظمة مثل وحدة عسكرية، وتمتلك أربع عشرة فرقة، وكل فرقة لها أفواجها وسراياها، وتدير العديد من معسكرات العمل حول شينكيانغ. وفي أثناء السنوات الماوية، آوت المعسكرات السجناء السياسيين من الشرق، ولكن حين تناقصت أعدادهم، فقد صارت المعسكرات تحتوي على المجرمين العامين بشكل رئيسي وعدد قليل من الويغور الانفصاليين. وحين تغيرت الصين، تغيرت مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء أيضاً، ومثل كل المشروعات التي تملكها الدولة، فهي تنوعت إلى كل أنواع الأعمال حين غطست البلاد مباشرة إلى اقتصاد السوق.

مئات الآلاف من الصينيين الهان الذين قدموا إلى الغرب مع مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء كانوا مشبعين إشباعاً عميقاً بالتعاليم الشيوعية عن التضحية من أجل الأرض الأم. سائق سيارتي الأجرة يتحدث عن والديه وكيف أنهما «أكلا المرارة» طوال عقدين، في الخمسينيات من 1950، والستينيات من 1960، حين كانا يحاولان أن يبنيا الاشتراكية في شينكيانغ.

---

* هي شركات للإسكان تنشأ للحصول على قطع كبيرة من الأراضي وتحسينها ثم تقسيمها إلى (نمر) أو قسائم وتوزيعها على الأعضاء المساهمين وجمع الأموال اللازمة لهذا الغرض. انظر المعجم القانوني، (المترجم).

هناك الآن مئات الآلاف من الجيل الثاني من الصينيين الهان وهم أناس مثل ون، والعديد من الجيل الثالث أيضاً، الذين تشكل شينكيانغ الوطن لهم، وفي الحقيقة أن مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء لا تحتاج إلى تشجيع المستوطنين إلى المجيء بعد الآن. فالإغراءات الاقتصادية من استثمار المال الحكومي هنا تجلب ما يكفي من الهان المهاجرين من دون حاجة إلى المزيد من الهجرة القسرية. وفي الحقيقة، صارت أورومجي تقريباً مغناطيسا للمهاجرين بقدر ما هي شنغهاي. مركز مدينة أورومجي غابة من المباني المكتبية الجديدة، والطرق، والفنادق، وإنشاءات كافية لتنافس مدناً رئيسية تقع على بعد ألفي ميل إلى الشرق منها. ويقول السائق ون: «كل هذا كان حقولاً». وهو بكلامه هذا يكرر كالببغاء كلام كل سائق سيارة أجرة في كل مدينة سبق لي أن زرتها في أي زمان عبر الصين ونحن نتوجه عبر ضواحي البلدة نحو الطريق إلى بحيرة السماء.

زوجة السائق ون موظفة لدى شركة كبيرة من أورومجي كانت قد بنت قبل مدة قليلة أعمالاً حديدية وفولاذية في طاجكستان، وتورد الفولاذ من أجل إعادة إعمار أفغانستان. كانت تعمل بالقرب من العاصمة الطاجيكية، دوشانبه، بعمل محاسِبة طوال عام تقريباً وهي تكسب مالاً جيداً، حسب ما يقول.

ونتسلق صاعدين في الجبال الخضراء الناضرة الريانة، وفي نهاية الطريق، قرب القمة، توجد منطقة موقف ضخم للسيارات ومدخل إلى نظام سيارات الكابل الصغيرة، الذي يأخذ السياح، كل اثنين في المرة الواحدة، ليصعدوا إلى البحيرة. والمنطقة تجيش بالسياح الهان الصينيين.

وأركب سيارة الكابل إلى القمة وهناك توجد فجأة أجمل بحيرة صغيرة سبق لي أن رأيتها في أي زمان. تعطي الشعور وكأن كتلة من جبال مونتانا روكي قد انقذفت في وسط الصين الشمالية الغربية. وهي محاطة من ثلاثة جوانب بتلال مكسورة بأشجار الصنوبر الجميلة، وتمتد البحيرة لمسافة ميل تقريباً، ويلوح فوقها جبل الله، وهو ما زال مغطى بالثلج في شهر آب/ أغسطس، ويمتد متطاولاً في السماء إلى ارتفاع ثمانية عشر ألف قدم تقريباً.

جموع من السياح الصينيين مجتمعون كلهم في بقعة واحدة، إلى جانب صخرة ضخمة كان قد نُحِت عليها الحرفان الصينيان لبحيرة السماء، وهما تيان تشي. وهناك خط طويل من الناس ينتظرون ليقفوا إلى جانب الحرفين وتلتقط لهم صورة ضوئية. والزوارق الآلية تزمجر عبر الماء، وأزيز محركاتها يرجع الصدى في كل أنحاء البحيرة التي لولا ذلك لكانت بحيرة وادعة مسالمة. وتغلبني الحاجة إلى الهروب من الجمهور. وهكذا أنطلق على الطريق الصغير الذي يقود صاعداً إلى الجانب الشرقي من البحيرة، وفي غضون خمس دقائق تقريباً لا يوجد هناك أي شخص.

وتصير الطريق ممراً، وبعد المشي طوال ساعة، أجد صدفة لافتة كبيرة، تقرأ فيها خيام رشيد. ورشيد، كما يتبين بعد ذلك هو قازاقي رجل أعمال يتحدث الإنجليزية جيداً (والصينية) ويؤجر أماكن في خيمه القازاقية التقليدية، المعروفة باسم يورت، وذلك بشكل رئيسي للأجانب حملة حقائب الظهر. وأطرح حقيبتي اليومية وأتوقف عن التقدم إلى مسافة أبعد على طول شاطئ البحيرة وشمس الأصيل تختفي خلف الجبال.

ترتفع التلال المبرقشة من كل جانب من البحيرة، مجموعة من ألوان الأخضر المتباينة. والأشجار الصنوبرية مرتبة في أشرطة طويلة وعريضة نزولاً في جوانب الجبل. والأشجار المتساقطة الأوراق، على النقيض، تبدو أنها تنمو في عناقيد، وفي عقد صغيرة من الأخضر الأكثر بريقاً الذي بدأ قبل قليل يفكر في التحول إلى اللون الأصفر.

شخص ما قد وضع جلد غنمة مذبوحة حديثاً على الصخور في جانب البحيرة ليجف. والفطر ينمو من كتل الخشب المتحللة. والطحلب موجود في كل مكان، والهواء النظيف لتتنفس، والصمت. ومن حين إلى آخر تقفز عنزة صاعدة في جانب التل فوق ممر على جانب البحيرة. ويحوم صقر فوق الرؤوس، ثم يخفق بجناحيه نحو قمة كل شجر التنوب الطويل. وأجد بقعة من العشب بين بعر الماعز بين الممر والبحيرة، وأجلس ساكناً بلا حركة طوال ما لا بد أنه كان على الأقل نصف ساعة، أراقب فيها الطائر العظيم.

وفي نهاية الأمر، يطير الصقر مبتعداً، فأنهض وأعود إلى خيام رشيد لتناول العشاء. إنه طاسة بسيطة ولكنها لذيذة من المعكرونة الطويلة واللحم، تؤكل مع اثنين آخرين من حملة حقائب الظهر هما أيضاً يلجأان إلى الجبال، ليرتاحا من رحلتهما عبر الصين. لا يحدث أي شيء مطلقاً في ذلك المساء، وهو أمر رائع في حد ذاته. ويهبط الليل، وأتجول نازلاً إلى البحيرة وحيداً وأقف في الظلام، أنظر إلى الأعلى إلى النجوم، مثلما أعمل دائماً. وننام وأقدامنا متجهة نحو وسط الخيمة الدائرية، تحت بطانيات قازاقية سميكة وفرها رشيد ضد صقيع ليل الصيف.

لم يكن الضوء بعدُ قد انسل بعيداً بشكل كامل والسيارة تنطلق من محطة أورومجي لتبدأ رحلتها التي تدوم ست عشرة ساعة إلى الحدود. وفيلم الكونغ فو كان قد بدأ يومض من قبل، ورجل ويغوري مسن له لحية صغيرة يجلس قائم الجسم وساقاه متصالبان على السرير خلفي، يداه مرفوعتان إلى الأعلى وهو يرتل صلواته المسائية. والركاب كلهم تقريباً وبشكل حصري من الويغور، وحين أتفاعل معهم أشعر أنني محرج قليلاً بسبب قسرهم على التحدث بالصينية. قطاف ضخم من البندورة (الطماطم) مرئي في ضوء المساء، ومحمل في شاحنات على جانب الطريق، وربما يكون في طريقه إلى زجاجات للكاتش أب من أمريكا.

العالم الأمريكي الكبير بآسيا الوسطى أوين لاتيمور ـ الذي سوف يتهمه في الخمسينيات من 1950 عضو مجلس الشيوخ الأمريكي جوزيف ماكارثي بكونه الجاسوس السوفييتي الأول في الولايات المتحدة ـ قام في العام 1927 بالرحلة نفسها مع زوجته ومع خادم صيني اسمه موسى. كانوا على ظهور الخيل، متجهين غرباً، قبل أن يقطعوا الجنوب عبر شينكيانغ الجنوبية إلي كشمير البريطانية. ويصف لاتيمور في كتابه عن الرحلة، (بلاد التتار العليا)، كيف مر بهم، القنصل السوفييتي العام، وهو يقود السيارة الوحيدة في شينكيانغ وهم راكبون خارجين من أورومجي.

ويصف لاتيمور بلدات الغرب القفر على طول الطريق خارج أورومجي في تلك الأيام: «أعداد سائقي العربات بدولابين الكارّة، والباعة المتجولين، وباعة السلع الرخيصة، والمتعاملين ببيع المواشي، وتجار الخيول، ورجال القوافل التي تمر من

حين إلى حين آخر، ومستطلعي أنباء سباق الخيل للمراهنة، واللصوص، والأشقياء (البلطجية)، والمتشردين الواضحين ازدادوا برجال القبائل، من المنغول والقازاق معاً، من النوع الذي يغويه المجيء إلى مثل هذه البلدة، وهم: المسرفون والسكارى... والجو العام هو جو تنَمّر الأشقياء، والتبجح، والحركة الماكرة، والخداع المعيب». وختم لاتيمور بالقول إن البقاء على قيد الحياة كان يتطلب «لساناً حاضراً، ووجها جسوراً بلا حياء من نحاس، ويفضل وجود زوج من العيون في قفا رأس كل إنسان».

كان واحداً من أواخر الأجانب الذين سافروا في طرق القوافل القديمة على ظهور الجمال أو الخيل. وكان مراسل التايمز في لندن بيتر فليمنغ قد جاء عبر شينكيانغ بعد سنوات قليلة، ولكن اليابانيين، بعد ذلك، غزوا الصين وجاءت الحرب، ثم إن الشيوعيين استولوا على السلطة في العام 1949 وحولوا كل شيء بوساطة سككهم الحديدية وبطرقهم. إن الإصلاحات السياسية التي أدخلها ماو والإصلاحات الاقتصادية التي أدخلها دينغ شياوبنغ غيرت الصين إلى الأبد، وإن الطريق السريع بمساراته الأربعة التي تعصف نحو الغرب خارجة من أورومجي هو طريق حديث ومناسب على نحو مخيف، على الرغم من أنه لا يضج (بعدُ) بأزيز المرور حتى الآن. بعد وقت قليل سيكون الطريق 312 طريقاً سريعاً بأربعة مسارات طوال الطريق حتى الحدود.

ماذا كان أوين لاتيمور سيفعل بهذا الطريق وهو متجه إلى الغرب بعد ثمانين عاماً؟ لقد استغرق منه الطريق ستة أيام ليركب إلى شيهيو، وهي على بعد 140 ميلاً إلى الغرب من أورومجي. وقطعها القنصل العام السوفييتي في سيارته في يومين. حافلتي الصقيلة الزرقاء المعدة للنوم، وكلمات الإجازة المريحة مكتوبة بحروف إنجليزية كبيرة على طول جانب الحافلة، تصل بلدة كويتون، القريبة جداً من شيهيو، في أربع ساعات على طول الطريق السريع. وكله آمن وكفء للغاية. لقد روض الحزب الشيوعي العديد من الصحارى ومن جبال شينكيانغ، على الرغم من أنه لم يكسب بعد قلوب شعب المنطقة وعقوله حتى الآن.

بعد ساعات قليلة، تضيق المسارات الأربعة إلى اثنين، والقرى الصغيرة تعانق الطريق، وهو يندفع ببطء نحو الغرب في الظلام. وخلف قطاعي الإسكان الضيقين وبينهما، لا يوجد إلا القليل غير الصحراء المفتوحة على اتساعها. كل أولئك المئات من الملايين من الناس في الصين محشورون في النصف الشرقي منها، وهذا النصف فارغ تقريباً. وتعتصر السماء المتجهمة بظلمة متزايدة آخر ومضات من مقاومة اليوم وأنا أغط في نومي على سريري لآخر مرة.

كانت الصحراء قد تبخرت في الوقت الذي صحوت فيه، وهناك بحيرة كبيرة خضراء إلى جانب الطريق. والطريق 312 خرج أخيراً من الصحراء إلى سلسلة من التلال الجميلة، قبل الحدود بقليل تماماً. إنها ليست تماماً مثل رؤية المحيط الهادئ بعد سانتا مونيكا عند نهاية الطريق 66، ولكنه تغيير موضع ترحيب من الصحراء من آخر ألف وخمس مئة ميل. ويدعى هذا الامتداد من الماء باسم بحيرة سيرام، وهناك خلفية جميلة من الجبال خلفها.

وفي الوقت الذي كنت فيه أبدي إعجابي بالمنظر من سريري، تباطأت حافلة الركاب وانتفضت فجأة للوقوف. مرة أخرى تعطلنا، بجانب البحيرة تماماً. وتمر الشاحنات الزرقاء الكبيرة من ريح الشرق من جانب سيارتنا الجريحة، وهي تنفخ أبواقها حين مرورها بنا. وفي هذه اللحظة، أريد فقط أن أصل إلى الحدود، وهكذا ففي الوقت الذي يتشاور فيه سائقانا حول أفضل مسار للعمل، أقرر أن أتابع وفق خطتي بالطريقة المعتادة، وأخرج وأسافر متطفلاً مجانياً في آخر ساعات قليلة من الرحلة.

ويلتقطني سائق شاحنة. وهو صيني من الهان، وهو تقريباً صورة كربونية طبق الأصل عن سائق الشاحنة ليو، الذي كان قد منحني ركوباً من بلدة الممر النجمي (ستاري غورج). اسمه ميو، وقد جاء طوال الطريق من شنغهاي أيضاً. وهو ابن مهاجرين صينيين من الهان جاءا مع مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء في الخمسينيات من 1950 للمساعدة في تطوير الغرب، على الرغم من أنه بعمله سائق شاحنة ربما كان يقوم بتطوير الغرب بشكل أكبر مما سبق أن فعل والداه.

نتبادل أطراف الحديث والطريق يتلوى شديد الميلان نازلاً من التلال، وهو محصور على واحد من الجانبين بحاجز فولاذي لمنع السيارات من الاختفاء بعيداً عن الحافة. والغابات من أشجار الصنوبر الأخضر الغامق تصطف على جانبي الطريق، تدهش المسافر، الذي ترعرعت عيناه معتادة على وهج الصحراء.

وأخيراً، نصل كورغاز، بلدة صغيرة موحشة تعطي الشعور بالفراغ، وهي الموجودة في الحقيقة من أجل عبور حدودها فقط إلى كازاخستان. مازال الوقت باكراً، والشوارع هادئة. وأنا أمشي بحقيبة ظهري الثقيلة مسافة ميل أو ما يقارب ذلك من محطة حافلات الركاب إلى العبور، ماراً بحامية الجيش، على طول شارع يسمى تسمية مناسبة: طريق أوراسيا.

إلى جانب الطريق قبل عبور الحدود تماماً توجد فسحة من الأرض منفتحة على اتساعها مع لافتة تعلن أن شيئاً ما يسمى مركز كورغاز الدولي للتجارة يوشك أن يرتفع من بين أنقاض الهدم. وتشير اللافتة إلى طموحات البلدة.

الطريق المناسب للسلع الصينية
لتدخل بنجاح إلى آسيا الوسطى

العبور نفسه لا يترك أثراً في النفس نوعاً ما: بوابة معدنية قديمة واسعة، مدهونة بالأحمر والأبيض، أمام مبنى بالآجر الأبيض لا يزيد ارتفاعه عن خمسة أدوار كتبت عليه بحروف ذهبية كبيرة الحروف الصينية التي تعني عبور حدود كورغاز. رجلان صينيان في الزي الموحد الأخضر وعليهما كتفيات حمراء للرتب يقفان داخل البوابة، يسمحان بالدخول فقط لمن سيعبرون الحدود. وهناك سوق صغير على يمين البوابة. والتجار يبيعون مجوهرات وحلياً صغيرة، وسيوفاً، وفرواً، وأطعمة روسية وألعاباً صينية. وهنا أيضاً، توجد طاقة، وأمل بالتحسين أتخيل أنا، وربما بشكل غير منصف، أنه قد لا توجد على الحدود في كازاخستان.

حين أصل البوابة الحمراء والبيضاء، ألتفت خلفي وأدرك...أن هذه هي. هذه هي نهاية الطريق 312، وهي نهاية رحلتي. وتشير قراءة حجر مؤشر إلى جانب الطريق

إلى 4824 كيلو متراً. لقد سافرت تقريباً ثلاثة آلاف ميل من شنغهاي، ويا لها من رحلة كانت طويلة وغريبة.

لقد شهد الطريق على كل شيء: فقر الريف، والثروة المتنامية للمدن، وطبعاً الناس الذين يسافرون على طول الطريق نفسها. إنه موصل للأمل ولليأس، يجلب الهروب والاختيار لأماكن لم يسبق لها أن عرفت إلا القليل من الاثنين.

الطريق 312 كان مصدر تحويل لي أيضاً، وساعدني على أن أرى الكثير جداً مما لم أكن أعرفه. ولكنه ليس هو نفسه بالنسبة إلي. إنه مختلف جداً. لقد توصلت إلى محبة الطريق 312 في كل طرقه الانفصامية، ولكنني أجنبي محايد. أنا أستطيع أن أغادر. وأنا الآن أغادر. وهو ليس رومانسياً خيالياً كثيراً تماماً بالنسبة إلى الناس الذين يجب أن يمكثوا.

قلة من الناس الصينيين يلتقطون صوراً أحدهم للآخر أمام البوابة الحمراء والبيضاء. وأريد أن أسألهم: «هل قطعتم كل الطريق من شنغهاي ؟» وأسلم آلة التصوير الخاصة بي لواحد منه وأطلب منه أن يلتقط لي صورة، وأنا أقف أمام معبر الحدود. ذكرى نهائية.

وعلى كل حال كنت أتوقعه أن تكون أكثر تأثيراً دراماتيكياً، وأن إشارة موسيقية ما قد تتصاعد في الخلفية وقائمة الاعتراف لأهل الفضل تندرج في بيان. ولكن الموسيقى الوحيدة هي إلحاح التجار في السوق، والعروض المهموسة لصرافي العملة: «اصرف عملة، اصرف عملة».

وتغمرني فجأة موجة من العاطفة وتجتاحني لدى وصولي إلى نهاية الطريق، وفعلياً نهاية زماني في الصين. وأقف هنا مفكراً إلى الوراء في رحلتي وفي كل الناس الذين قابلتهم، ولا أكاد أصدق أنها قد انتهت. ربما يكون هذا هو ما كان يشعر به المرء في السفر إلى الغرب في الولايات المتحدة في التسعينيات من 1890: من دون معرفة ماذا أعد المستقبل للبلاد العظيمة التي رأيتها قبل قليل، ولكن مع الشعور تماماً بالامتياز المحض لمشاهدة مخض التاريخ وحركته، وتحول أمة، وبروز قوة جديدة، تأخذ مكاناً

مرة فقط في كل ثلاثة أجيال أو أربعة. ومهما يحدث للصين في المستقبل، إن عشت أنا بما فيه الكفاية لأرزق بالأحفاد وسألوني، «هل كنت هناك، يا جدي؟ هل رأيت الصين فعلاً وهي تنهض؟» فسوف أقول لهم: «نعم. أنا رأيتها. أنا كنت هناك».

وآنئذٍ أدرك أنني لا أريد أن أمكث دقيقة واحدة أطول. أود أن أخرج من هنا، لأصعد إلى طائرة، ولأذهب لأرى أسرتي. وأضع حقيبة ظهري في سيارة أجرة تنتظر، يمتلكها مهاجر مزاحم من مقاطعة هينان على بعد ألفي ميل إلى الشرق، ويقود السيارة بي مسافة خمسين ميلاً أو ما يقاربها إلى مطار ينينغ، لرحلة الطيران الطويلة عائداً إلى المدينة الزمردية إلى مدينة شنغهاي.